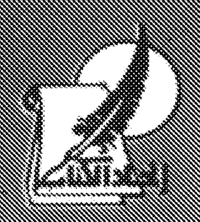
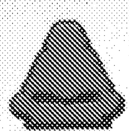


كتاب الاتحاد

عصام الصاوى

كنوز شمائل



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

(كنوز شمائل)

إهداء

إلى حبة قلبى..
السمراء الجميلة..
ابنتى الوحيدة إيناس.

عصام الصاوى

أمـــل فاضـــــــل

تعجب الأستاذ فاضل حين رأى ناظرة المدرسة تبتسم فى رقة تشجعه أن يستمر ، كذلك عندما التفت إلى التلاميذ وجدهم جميعا متنبهين متطلعين ينتظرون كلماته ، ولما دق الجرس قاموا وقوفا تحية له عندما خرج منصرفا بعد انتهاء الدرس ثم خرجوا بعده بهدوء . فى حجرة المدرسين وجد الزملاء يرحبون فى ود ظاهر فتمتلكه الدهشة . كان الأمر غير مفهوم لأن التلاميذ فى فناء المدرسة كانوا يلعبون فى وداعة ، وكذلك كان السعاة والعمال على نفس الحالة .

بينما كان فاضل يحاول أن يجد طريقا عبر الزحام كان الماء الموحل تناثر فوق ملابسه عندما مرت السيارة مسرعة إلى جواره فصاح يسب السائق المتهور والحظ السيئ ، ولم يهتم أحد من السائرين كأنما لم يحدث شئ البتة .

وكيلة المدرسة لفتت نظر الأستاذ فاضل عندما كانت تسير ورآها من الخلف وقد نبت على كتفيها جناحان صغيران وسارت فى تؤدة تهتز فى وقار ، وقد كانت قبلا تسيركما لو كانت مستعدة دائما أن يصفقوا لها على الواحدة وتحرك ردفيها بانتظام فتثيره تجعله يتمنى لو أتيحت الفرصة فيهجم وينشب أسنانه فيها يعضها بشدة حتى تستغيث وينقذها أحدهم منه لتتوب عن هذه الإثارة التى تفتنه بها كل يوم .

ابتسم الرجل قائلا أن عليه الحضور فى الغد فان الساعة قد تجاوزت الثانية عشر ظهرا ، وأنه مضطر لأن يغلق شباك الخزينة ليستطيع الجرد ، ولم يدع الأستاذ فاضل يكمل توسله أن يقبل النقود ليوفر عليه المجهود ، فتمتم فى غيظ يلعن اللوائح والنظم والقوانين التى لا تغطى احتياجات الناس .

الأستاذ فاضل فوجئ لما لم يجد الباعة الذين كانوا يشغلون الرصيف ورأى التلاميذ يسيرون فوقه تاركين الشارع للسيارات التى لا تطلق آلات التنبيه فى هذا اليوم العجيب .

خمسون جنيها فقط . هكذا قال عامل إصلاح التلفزيون وهو يفرك يده مستعدا للمساومة . قبلها طلب البواب أجرة السكن وفوقها نصيبه من استهلاك المياه ونور السلم أربعة وثلاثين جنيها أخرى ، علاوة على أجرة الخياطة التى طلبتها زوجته فى الصباح ، الأمر يحتاج إذن إلى مطبعة للنقود لكى يسكت كل هؤلاء ، قال ملعون أبو الفقر وتنهد مستسلما .

زاد عجب الأستاذ فاضل عندما عاد للمنزل وجد سعدية وقد جهزت المائدة وجلست مع الأولاد ينتظرونه ليبدأوا الأكل فى سابقة ليس لها مثيل طوال سبعة عشر عاما مضت ، وابتسم وجلس يراقبهم وهم يأكلون يحس بالرضا والسرور

. فى المســاء قابل الجيران وصاحب العمارة فكانوا يسلمون عليه وينحنون فى احترام أذهله فماذا جرى حتى تتغير الدنيا بــهذه الصورة الرائعة ، إن هذا بالضبط ما كان يحلم به كثيرا وقد تحقق ، ولابد أن تكون الحكومة الجديدة صاحبة الفضل ، فقد قدم البائع باقى ثمن الجريــدة ، والبقال خطف من يده علبة السمــن وقدم إليه أخرى نظيفة لامعة يرجو رضاه . محطة الأتوبيس كانت تستحق وقفة طويلة عندما شاهد صفين من الناس ينتظرون الأتوبيس الذى وقف إلى جوار الرصيف ولم يتزاحم أحد وأكمل عدد ركابه وانتظر الباقون وقد أمسك كل منهم مجلة أو كتابا صغيرا يقرأون ليستفيدوا من وقت الانتظار .

دفع البقال بطاقة التموين رافضا أن يصرف له مقرراته الشهرية وقال أنه يجب عليه أن يجددها ليمكنه الحصول على السكر والزيت والشاى . ولما حاول قالوا إن المهلة قد انتهت ويجب أن يحصل على موافقة وكيل الوزارة ، فكتب التماسا وقدمه ورفعه الوكيل إلى اللجنة المركزية العليا برئاسة الوزير للموافقة على تجديد بطاقته ، وفعلا وافق على ذلك وأمر بالصرف فورا ، إلا أن البقال رفض ثانية أن يصرف الأصناف وقال أن ذلك يسرى من أول الشهر القادم . وهكذا فإنه سوف يشترى هذه الاحتياجات من السوق السوداء ويدفع ثمنها مضاعفا مرتين تقريبا .

رفع الأستاذ فاضل عينيه فشاهد مجموعة من إعلانات الأفلام فى ألوان براقة متناسقة فى شكل جميل ورأى العناوين أجمل ، فقد كانت الفضيلة والأمل الواعد والصادقون وتعلم وعش سعيدا، فارتفع حاجباه واتسعت عيناه وسقط فكه لأسفل فقد كانت غيــر ذلك بالأمس فقط . ماذا حدث فى الدنيا ؟ وقدر أن الزمن دارت عجلته وربما عادت إلى الأربعينـــات ، ولكنه تأكد من التاريخ على صفحة الجريدة وكان مضبوطا ولم يختل الزمن . إذا أين كانوا عندما نــهبت شركات توظيف الأموال ثروته الصغيرة ، وعندما اغتصبت الحكومة آماله فى الترقى ، وعندما ضاعت هيبته فى البيت أمام زوجته ، وعندما بعثرت الناظرة كرامته أمام الزملاء متهمة إياه بالتراخى والكسل . وعاد إلى أحداث مضت عندما كان صغيرا وسرقوا أدواته وعندما أخذوا كرته الصغيرة ، ولما نشلوا محفظته فى الترام وإضطر أن يعود إلى الجيزة سائرا على قدميه . تداعت كل سوءآت البشر فى لحظات الفضيلة والكمال التى يعيشها وتمنى لو أنــها بدأت من سنين قبل أن تتوه أحلامه وتقتل طموحاته .

كانت السماء ممتدة زرقاء صافية ، وطيور بيضاء تمضى مطمئنة وموسيقى معدنية بألحان ملائكية تملأ الكون حنانا ورقة ، وشمس لطيفة ترسل بــهجة ونورا . تحت أصابعه أحس أديــم الأرض له ملمس الحرير فداعبها برقة وأحس بروحه تتمدد فى استرخاء وأمان فأغمض عينيه يحاول أن يحتفظ بالصورة الجميلة وشعــر بالسكينة والسعادة تغمرانه .

أخترق الألم ظهر الأستاذ فاضل فتصلب قبل أن تتحطم غضاريف عموده الفقرى من آثار الانزلاق القديم الذى يعاوده كل شتاء ، ووجد أن ذلك حدث بسبب طول الانحناء حتى يمسح الحذاء بالمنديل . لابد أن يصمد ويتحمل ، ولملم أطراف السترة محاولا إدخال الزرار فى ا لعروة يمنعه كرشه الذى تنامى فى العام الأخير ، كل ذلك استعدادا لمقابلة المفتش فى حجرة الناظرة وهو لا يحب كليهما . كان المفتش واجــما ساهما ينظر فى قرف يقلب الأوراق أمامه عندما فاجأته الناظرة بالصراخ ثــم قذفت فى وجهه حفنة تراب ناعم ملأ فمه وأنفه .

توقف الزمن عندما صدمت أنفه رائحة الغبار ، ثم داهمته وأحس أن أنفه قد انسد من كثافة التراب وكاد يختنق ، ولم تجد محاولاته السريعة أن يفتح عينه ، فلم تستجب له لا الجفون ولا أى حركة فقد هربت قواه . اقتربت همهمة بعيدة تصاعدت إلى الصراخ ، وأحس بنفسه ينضغط ، وأيادى كثيرة تتجاذبه وتدفعه ، ثم هذه الرائحة النفاذة لقد شمها قبل ذلك ، لا يذكر أين ومتى ، والآن رذاذها لا يتوقف عن السقوط فوق أنفه .

أخيرا جاء الفرج واستطاع أن يشهق ليتنفس قبل أن يموت ورأى الدنيا مقلوبة بالفعل ، وحول رأسه أقدام كثيرة تعلوها وجوه ناظرة مستفسرة . وجه هذه السيدة مألوف لديه ، من يا ترى تكــون ، وهــذه الزجاجــة فى يدها تنـــثر منها على وجهه . آه إنـــها الوكيلة تصرخ فى التلاميذ . .

اكتشف الأستاذ فاضل أنـــه راقد على الأرض وسط الفناء وأحس بأصابعه تتحرك فوق التـــراب تتلمس شيئا تـــمسك به . ساعده الزميل على الوقوف ثم سار به حتى المقعد ، ونظر فرأى مؤخرة الوكيلـــة تـــهتز أمام عينيه فعـــاوده الدوار من جديد.

* * *

جمهورية المهندسين الأرستقراطية

" إلـــهى أشوف فيك يوم يا شوقى يابن فاطمة ". هكذا كانت فريدة تدعو على زوجها كلما ضاقت بـــها الأمور ، ودائما هى تضيق فلم تر أبدا طوال سنوات كثيرة معه ما يسر البال أو يريح القلب . لأجل البخت المائل رفضت أربعة خطاب طلبوها قبله للزواج ، وتوسمت فيه أن يكون فارس أحلامها الذى يحقق المحال ويخترق المجال ويهيئ لـــها حياة حلمت بـــها ونسجتها وحدها .

أيام كانت الدنيا رخاء استطاع شوقى أن يسكن فى الحى الراقى ولم يتكلف سوى بضع مئات كانت ثقيلة على مرتبه ، وانتقل هو وفريدة إلى هذه الشقة يتمتعون بالـــهدوء والحديقة التى تحيط المنزل حتى مرت السنوات وازدحمت المنطقة ، وبنوا أبراجا عالية حجبت الشمس والهواء فماتت الأزهار والأشجار وتحولت الحديقة إلى أرض مهجورة يلقى فيها السكان ما زاد عن حاجاتـــهم وزاد الضجيج بزيادة السكان والأولاد ، كما زاد الغلاء وتقلصت القدرة على الشراء ، وباتوا يعدون الأيام الباقية حتى أول الشهر يدعون الله ألا يفاجئهم بموقف صعب يحتاج للمصروف .

بقدرة قادر أصبحت الشقق تباع وتشترى ، والواحدة ثمنها مئات الألوف لو كانت تيسرت من قبل لكانت اشترت قرى كاملة بما عليها من بيوت وحيوانات وزروع وآدميين أيضا . الشقة فى البيت المقابل لفريدة ثمنها تحدد بالفعل ربع مليون جنيه لا تنقص أبدا ، والشهقة انكتمت فى الأفواه والحلوق وسرعان ما حضر الناس وعاينوا الشقق والمكان ونظروا من الشرفات يكتشفون جيران المستقبل ، ورأتـــهم فريدة لا يختلفون عنها فلهـــم رؤوس بـــها عيون ولـــهم أذرع وأقـــدام مثـــل كـــل البشر لا يزيدون عنهم شيئا سوى الثروة .

أسابيع قليلة وأصبح ليل فريدة نـــهارا ، وتملكها القلق ثم الأرق وتوترت ليلا ونـــهارا فقد حاصرتـــها أجهزة تكييف الهواء الجديدة فى البناية التى تجاورها ، أربعة أجهزة زرعت على مستويات مختلفة ، لا يكاد أحداها يستريح ويبطل المحرك إلا ويبدأ التالى فى الدوران وتبعتهم ليلى جارتـــها التى تسكن فوقها والتى غارت مما يحدث وإشترت هى الأخرى جهاز تكييف بالتقسيط تدفع أربعين جنيها كل شهر لتساهم فى الضجيج المسائى الذى يبعث التوتر كل ليلة بالتقسيط غير المريح .

" شوقى .. أنا عاوزة تكييف ، إشمعنى الجيران والست ليلى كمان " . كل جهاز أربعة أحصنة ، قوته تـــهز الجدران وتصم الآذان ، وأنابيب طويلة تنقل النسيم البارد إلى غرف النوم ، تاركة الذبذبة والضجيج لفريدة وزوجها المتسلم لمعاناة الأرق والعرق ويمتد بـــهم السهر يقلبان الأمور بحثا عن مخرج ، ولا يجد شوقى ما يفعله أو يقوله . أما فريدة فتبدأ دائما بالتحسر على بختها المائل ، ثم تستعرض حياة الآخرين وإمكانيتهم وتحلم وهى يقظانة تكلم نفسها وشوقى يسمعها أنـــها قد حصلت على جهاز تكييف يرسل ذبذباته وضجيجه للآخرين ، ويبعث لها بالهواء المنعش فى ليالى الصيف يبرد الفراش ويجعلها تنسى عرق الصيف اللزج وتفيق لتبكى الحظ المائل وسؤ الاختيار الذى أوقعها فى شوقى المحدود حتى يثقل النوم والتعب جفنيها فترقد ويتنفس شوقى الصعداء ويظل وحده فى رحلة الأرق حتى يدركه النوم هو الآخر .

سوء حظ شوقى أن غرفة نومه قبلية غربية تزورها الشمس ساعات طويلة فتلتهب الجدران والسقف وتمتص الحرارة لترسلها عليهم ليلا ، ولا مهرب فلا يمكن أبدا النوم فى الشرفة أو نقل غرفة النوم من مكانـــها ولا المروحة الأثرية الوحيدة لديهم قادرة أن تغيير من الأمور شيئا ، وكأن الدنيا كلها تقلصت فى موضوع واحد هو درجة حرارة غرفة نوم فريدة ، بالإضافة إلى طنين أجهزة الجيران الذين حباهم الله بالثروة والجاه وهداهم لإستخدام الأجهزة ذات التأثير المزدوج داخليا للنعيم وخارجيا لشقاء الآخرين .

حادثة جديدة وضعت فريدة بين مشكلتين حادتين ، فقد اكتشفت أن ملابس جارتـــها تنشرها فوق الحبال تكاد تكون جافة لا تتساقط منها قطرات الماء ، واكتشفت أن هناك بالفعل جيل كامل من الغسالات الكهربائية تقوم بكل العمل حتى تستريح ربات البيوت من هم الغسيل الأسبوعى والذى تتمزق فيه عضلات ساعديها من عصر الملابس وتكاد تنخلع أكتافها عند وضعه فوق الحبال . صارحت فريدة زوجها بأملها الكبير فى غسالة سحرية ترفع عنها المشقة وتحقق الحلم الذى بدأ يراودها . شوقى انفجر عندما أحاطته فريدة بالحلم الجديد فلم يفق من حلمها السابق بجهاز التكييف ولم يدبر لـــه جنيها واحدا بعد ، فإذا بـــها تلاحقه بحلم جديد فاستمع مقهورا مستسلما حتى نام .

امتلأت العمارة الجديدة بالسكان وأجهزة تكييف كثيرة رشقت فى الحوائط تجلب السعادة للساكنين مع غسيل يجف بمجرد وضعه فوق الحبال ، وزاد على ذلك التصرفات الشاذة لأولادهم الذين بدأوا الحرب على شوقى وفريدة بضراوة مستخدمين فيها الدرجات الجديـــدة والموتوسيكـــلات والأكيـــاس والأوراق الملونة التى يلقونـــها ببساطـــة بعدما يلتهمون مـــافيها من شيكولاتـــه وآيس كريم وحلويات أمام أعيـــن أولاد شوقى الذين لاحظوا بشدة الفارق الكبير بين أشيائهم وأشياء الآخرين جيرانـــهم الجدد .

ذات مساء يوم قائظ قرر شوقى أن يتنزه مع فريده والأولاد وبالطبع كانت النزهة سيرا على الأقدام فى الشارع السياحى الذى يمتد من الكوبرى بطول النادى الرياضى حتى بداية الحى الشعبى . شارع جديد طفا فوق السطح أسموه شارع جامعة الدول حيث يلتقى هناك السياح العرب فى الصيف . وجدت فريدة الشارع وقد تحول إلى سوق كبير فيه كل الأشياء الجميلة غالية الثمن وقد اختفى باعة الذرة المشوية والترمس ، وحل مكانـــهم باعة من نوع جديد يبيعون للسياح وسكان المهندسين أعاجيب الزمان ، نسانيس وتماسيح وثعالب وثعابين وضفادع وسلاحف من الأحجام الصغيرة والمتوسطة وكلها أليفة يداعبها الباعة والناس وثمنها زهيد للغاية أقلها مائة من الجنيهات وأغلاها خمسمائة فقط بما فيها ثمن الأقفاص والسلاسل اللازمة وربما طعامها أيضا ، وهناك من يشترون . ووقفت أسرة الأستاذ شوقى تتابع عمليات الشراء والبيع مبهورين من المئات التى تخرج ببساطة من الجيوب لشراء ثعبان أو تمساح صغير . والأمر لم يكن عشوائيا فهناك باعة حلويات الأطفال فى الجزيرة الوسطى للطريق ، وغامر شوقى فاشترى أربعة أكياس من الفشار وزعها بالتساوى والعـــدل فخورا بالإنفاق ، وشحب لـــون وجه فريدة عندما سمعت البائع يطلب جنيهات أربع ثـــمنا لأكياس الفشار فتهورت وجمعت الأكياس من أيديهم وأعادتـــها للبائع وانصرفت بالأولاد ليلحق بـــها شوقى قبل أن يشتبك معهم البائع فى شجار ويلقى إليهم بالتهم أنـــهم فقـــراء لا يستحقون النزهة فـــى شوارع جمهورية المهندسين الأرستقراطية .

الوقــوف صامــدا

لما تضاعف مجهودى أحسست بقطرات العرق تتجمع فوق الجبين ثم تنزلق عند الذقن معلنة ارهاقى واحراجى أنى مازلت لا أنجــح رغم كل الدعم والتدعيمات والاستعانة بالخبرات .

* * *

أمام المرآة رحت أبرم طرف شاربى رافعا إياه مستعينا بالدهان أرجو أن يتصلب واقفا ، تمهيدا لأتخيل صقرا سيقف فوقه علامة حيويتى وقوتى وشبابى . قالت متهكمة .. وما الفائدة إذا لم يقف الصقر .

* * *

عندما سألتنى عن السبب أدارت وجهها حتى لاتحرجنى نظرتـــها ، قلت .. ربــما الوقت أو المكان أو الجو ، أو الخوف ، أو . قالت ..كان على أن أكتشف ذلك من البداية .

* * *

استمر يرسل شتائمه يلعن أبى وجدودى ملصقا بـــهم كل الصفات الرذيلة والدنيئة ، ولما لم أتحرك بصق على الأرض وقال .. أين عزم الرجال لتدافع عن كرامتك وأهلك ؟ ابتسمت فى كبرياء وأشحت بيدى أنه وكلامه وكل من حوله لا يحركون شيئا داخلى . تعجب وتلفت ومضى مغتاظا ، ثم وجدتنى لا أستطيع الصمود وحدى فى مواجهتى .

* * *

برفق أوقفت السيارة إلى جوار الرصيف . قالت متعجبة ألست ترى اللافتة أمامنا وعليها العلامة . لم أر شيئا . أشار أحدهم مبتسما فى سيطرة أن أنظر إلى اللافتة ، فسألته عن القلم ، أجاب فى عزة أنه لا يحمل معه واحدا . نزلت من السيارة وأغلقت الباب مبتسما بثقة أنا الآخر . قال الحكيم أنى لن أقف أبدا .

* * *

نظرت فى ساعتى ووجدت أنه مضى على فى هذه الحال حينا طويلا ، ولم أكل لحظة واحدة رغم رياح أمشيــر حاملة التراب إلى عينى وأنفى وفمى ، كذلك لم أفقد الأمل متحديا الوقت والظروف ونفسى ، فابتسمت واثقا أنى أستطيع التحمل يا عرب .

* * *

معنـــى الكـــلام

قلــت – سأرص الكلمات متجاورة فى انسجام حتى يسمعونى ، وفعلت .

قالــوا – ليس هكذا يقال الشعر ، ما أنت بشاعر .

– لا أريد أن أكون شاعرا ، وما طمعت يوما .

– سمعنا كلامك ، ووجدناه غريبا ، وليس بشعر أبدا .

– قد يكون كلامى نثرا ..؟

– ليس هكذا يقال النثر .

– لم ألق إليكم مقالا ولا خطبة .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– سأحكى قصة .

– افعل ذلك إذن .

– اسمعوا ياسادة ، فى تلك الليلة التى ظننت إنــها ستكون عذبة مزهــرة ، زوجــتى ياخوانى ...

– كفاك . كلنا نحكى عن زوجاتنا فى الليالى الزاهرة ، ثم نشتكى .

– أريد أن أقول ...

– ليس فى كلامك حبكة . أين وضعتها ؟ وكيف ستتناولــها ؟ ثــــم ستضـــطر فى النهاية أن تكتب ماقلته لنا ، فلا نقرأه ، ولن تجد له قارئا فى زمن أجهزة التلفزيـــون والفيديو وأطباق الأقمار الدولية .

– نعـــــم ...؟

– إذن تريد أن تكون كاتبا ، أو أديبا ، ... هـــا ..هـــا ..

– لا . لا أريد أن أكون كاتبا ، أو أديبا ، أو شاعرا . طمعت فقط أن أحكـــى لعـــل ضيقى يروح .

– أنت زوج مثلنا .كذلك تزوجت امرأة سيئة ، وستحكى لنا عن متاعبك ، نعـــرف جميعا ذلك ، وسوف تشكو مما نشكوه .

– قولوا لى من أنتم شعراء أم أدباء أم ماذا ؟

– لا . نحن الشكاؤن . ألسنا رجالا ؟ هيا أنضم إلينـــا فتكـــون رجـــلا ذا حيثيـــة ، وستستطيع ساعتها الشكوى مثلنا دون أن ترص الكلمات شعرا أو نثرا ، أو تحكى لنا قصة محبوكة ، فعندما تتجمع الهموم فانـــها لا بد بعد ذلك أن تـــهون . اجلس معنا يـــارجل واسمع منا جميعا ولتكن آذانك لنا صاغية ، ولا تـــتكلم ، ثم لاتحـــك لأحد عن ذلك أبدا .

***

ياعاشقـــــــــــــا

قالت - أراك ساهما واجما .
قــلت - كنت أحسب سنينى التى كانت قبل أن أراك .
- أنت عشتها كلها .
- بدونك كانت .
- لقد تقابلنا بالأمس ، هل غزلك هكذا دائما ؟
- انبهرت بالجمال والرقة ، فتدافعت المعانى من القلب إلى العقل ، وتعثرت الكلمات على الشفتين واللسان ، فوقفت أتملى آمل أن أحظى باستمرار القرب .
- ستنظر طويلا ثم تندم .
- لا .. بل نادم الآن على سنوات مرت .
- لابد أن سنواتك تلك كانت مليئة ؟
- لم أكن ملاكا طوال الوقت .
قالت - والآن ... ؟
قــلت - شيطانى همد وآن أن يستريح .
- مالى وشيطانك ؟
- لقد أثرتيه .
- وجمت ثانية .
- أحلم أن استقلى فوق العشب أرى القمر وأنت إلى جوارى فى ليلة صيف حانية .
- عجيب أن تكون حالما
- حالم دائما ، هكذا حال العشاق .
- عاشق أنت طوال الأيام والليالى ... أرتاب فيك هكذا .
- دعينى فوق العشب ومدى يدك إلىّ ألتمس أصابعك فأداعبها .
قالت - النهار يملأ الكون وحولنا الناس ، ولا قمر هناك ولا عشب فدعك من غزلك الحالم يا عاشقا .
قــلت - هلا قرأت عينىَ .
- فيها تاريخ طويل ونساء وحب وطمع للمزيد .
- بعدك لن يكون خافقا .
- أكلمك عن العيون ، مالك ولحديث القلب ؟
- دائما له شجون .
وشجونك ؟
- أجهد الزمان قلبى رغم قدرتى على الجرى كالحصان .
هل تقدر بالفعل ؟
- هذا حب جديد وقلب كأنما يخفق بالحب لأول مرة .
قالت - وهل تتحمل العشق .
قــلت - فقط حلمت أنى أداعب أصابعك فوق العشب وتحت ضوْ القمر .
- هكذا البدايات ، ولابد دائما من نــــهاية .
- لتعيشى يومك واهنأى ، ودعى النهايات للغد البعيد .
- أخاف أن أرهق قلبى وتلهث الأنفاس فما عدت صغيرة بعد .
- عشق عاقل رزين يناسب حالنا .
- العشق مجنون طائش يقذف للمجهول .
- أتوق أن أروح إلى اللانــــهاية .
- لا يحدث ذلك كثيرا .
قلــت - لا... انه يحدث الآن . هيا مدى يدك .
قالت - يدى كانت بين يديك فوق العشب وتحت ضوْ القمر، وخفق القلب ولـــهثت وخفت ثم رحت معك إلى المجهول ، ألم تدرك بعد ؟

***

هوايـــة غريبـــة

استطاع سعد بعد كفاح طويل أن يتخرج من كلية الطب البيطرى و لم يصدق أنـــه أنـــهى دراسته بعد أن قارب تجاوز الحد الأقصى للدراسة مهددا كل مرة أن يفصلوه ، ولكنه استطاع قهر تحدى الامتحانات والحظ والفقر وفاز بلقب دكتور . صحيح أنه لـــم يحصل على درجة الدكتوراه ولا يمارس علاج البشر لكنهم ينادونه فى القرية بالدكتور . دار سعد على الوحدات البيطرية بحرى و قبلي وداخ وتعـــب حتى أكتشف أنه يـــمكنه أن يغير ما هو فيه بـــأن يدرس ليحصل على دبلوم يؤهله لدرجة الماجستيـــر .

هنا ابتسم الحظ مرتين . البسمة الأولى أنه قبلت أوراقه للدراسة ، والثانية عندما تحقق حلم حياته أن يتزوج ابنه عمه الغنى بعد رفض دام سنوات طويلة بسبب فشله المستمر فى الدراسة وسمعته أنه غير مستقيم . كانت علاقات الدكتور سعد تتخذ شكلا خاصا به ، فإنه كان سرعان ما يفقد اتزانه عندما يرى أى أنثـــى ، وتثيره أكثر عندما تنتمى للطبقات الدنيا ، بائعـــة أو خادمة أو عاملة المهم أنه يجد نفسه مرموقا ، ينظرن إليه بإكبار وانبهار أو احترام فيحصل على مراده بسهولة دون أن يرتبط ، ويقدر أن يتملص بسرعة دون مسئولية.

عقدة الدكتور سعد بدأت منذ مراهقته عندما نجحت تجربته الأولى ، تلاها تجارب أخرى أكثر عمقا مع بنات السوق والخادمات فى المنازل حولهم ، وكلما أنـــهى علاقة بـــدأ أخرى ، وساعده على ذلك أن بيتهم فى قلب السوق وأبوه مات من زمن طويل والأم تزور كل الناس ليلا ونـــهارا وتتركه واخوته يفعلون كيفما شاءوا ، لذا كبـــروا كلهم على شاكله أخيهـــم الأكبر وكل شـــق طريقة . عندما كبروا تفرقوا جميعا وتركوا الأم وحدها فى البيت القديـــم . كان الدكتور عندما يسافر إلى القرى يمارس هوايته ولكن بصعوبة ، فالحيـــاة هناك لـــها طبيعتها وعلاقاتـــها ، لكنه دائما كان يستطيع ويرضى هوايته الغريبة .

الدكتورة المشرفة على الدبلوم من حظه كانت تسكن الشارع المجاور وزوجها أستاذ فى نفس التخصص ، احتاج إليها سعد عندما كان يعد أوراق الدبلوم وأبحاثه وسمحت أن يزورها فى البيت بضعة مرات لتتابع خطواته . وطد سعد علاقته بالخادمة وضبطته الدكتورة عندما حضرت فجأة للمنزل ، ووجدته هناك وأوراقه ليست معه ولم يكن جالسا ينتظرها ولم يكن فى حالة طبيعية . كان مع الخادمة ، وطـــار حلم الدبلوم مؤقتا وألقت الدكتورة بأوراقه إلى دكتور آخر بالقسم ليكمل معه الدراسة وسكتت عن الفضيحة وطردت خادمتها .

كان الدكتور سعد يقابل مشاكل صعبة فى الأتوبيسات العامة عندما يضيق بـــه الحال ، وكان الناس مرات يتكاثرون عليه ويهينوه ، وفـــى مرات كانت صفاقته إما أن تمنع السيدة من الاستغاثة أو التملص منه ، أو يكون الأقوى يفحم من حوله باســـمه مسبوقـــا بالدكتور ويعتذر عن الزحام ويترك السيارة إلى أخرى ليتمكن من فريســـة جديدة . المهم أنه كلما قابل صعوبات أكثر فإنه تجتاحه الرغبة أكثر فى التحدى والفوز فطالما قهره الناس ، ثم لا يستطيع إلا أن يغلب واحدة من النوع الذى يرتضى سفالاته .

عندما ابتسم الحظ ووافق عمه على زواجه من ابنته ، كان الدكتور سعد شديد التركيز ألا يقع فى أى موقف يكون من شأنه التأثير على موضوع زواجه ، لذا فقد التزم مؤقتا بالعفة لا يمارس هوايتـــه إلا مع صديقاته القدامى حول المنزل القديم والسوق ، وكان حظ ابنة عمه أن تتزوجه لتنجب منه طفلين فى أقل من ثلاث سنوات عانت الفترة الأخيرة منها بعد أن كان له كل يوم حكاية مع بائعة أو خادمة أو جارة ، وبعد أن نبذه جيرانه الجدد وأصبحوا ينظرون إليه بما يستحق . لم تحتمل زوجته هذه الحياة ولجأت مع ابنيها إلى أبيها عم الدكتور سعد الذى جمع رجال العائلة وأجبروه أن يطلقها ، وتركوه وحيدا فى منزله وأخذت أولادها معها وطارت أحلام الميراث .

انطلق الدكتور سعد فى نفس طريقه ، وكلما مر الزمن عليه كلما كان أكثر حكمة ومهارة فى الاختيار ، وقبل أن يتعود على حياة العزوبية إلى الأبد ظهرت سيدة من عائلة كبيرة ذات مال وفير يمكنها أن تحقق له أحلام الثروة التى طارت فى المرة السابقة . سرعان ما دخل سعد فى الصورة الجميلة بعد أن استطاع الحصول على الماجستير واستعد لدراسة أخرى تؤهلـــه للدرجة الأعلى واستقر بالمدينة . صورته كدكتور وهيئته الطبية وحكاية محبوكة عن زوجته الأولى التى هجرته ، وتمسح فى أقارب من درجة بعيدة بأسماء لامعة ، وتقدم يطلب يد عروسه الجديدة وانخدع الجميع وتزوجها ، وقبل سنوات ثلاث أخرى كان له منها طفلين آخرين . زوجته الأولى حرمته أن يرى أولاده وتعود ألا يراهم وكاد ينساهم ، وغرق السنوات الثلاث فى محاولة لتعديل وضعه ونقل هوايته ونشاطه بعيدا عن العمل والمنزل ، وبذلك ظلت صفحته نقية أمام سميرة زوجته الثانية ، وكان كالملاك الطاهر والرجل الكادح من أجل زوجته وأولاده .

يوما كان من أسعد أيام الدكتور سعد عندما رجع ووجد زوجته متهللة فرحة كأنما وجددت الكنز ، فقد استطاعت الحصول على خادمة بعد أن أرهقتها أعمال المنزل وطلبات الصغـــار . بائعة الخضر أحضرتـــها من قريتهم ، فأهدتـــها بعض الملابس فوق عشرين جنيها نظيـــر الوفاء بـــما وعدت . الخادمة أرملة صغيرة ليس لـــها أولاد ، وأقاربـــها منشغلون عنها وحظها قليل وجمالـــها مقبول وعودهـــا ملفوف وعينـــها منكسرة ، مطيعة طيبة أمالت قلب زوجة الدكتور ورضيت بـــها . الدكتور وافق على مضض ، قال أنه لا يحب وجـــود الخادمات بالمنزل ، وأورد

أسبابا وعددها ، ونبه سميرة أن تحرص على أشيائهـــا الغالية وملابسها ، وأن تفتح عينيها لـــما تحوى الثلاجة ودولاب المطبـــخ ، فهذا الصنف ملعون غير مأمون يسرق الكحل من العيون ويأكلون كل ما أمامهم كأنه آخر الزاد ، وأعاد وزاد حتى كادت سميرة أن تندم لأنـــها طلبت خادمة . إلا أنـــه عندما لاحظ أنه أسهب كثيرا تراجع وقال أنـــه مستريح لأنـــها وجدت من يعاونـــها ، وأنه منذ زمن يتمنى أن يجدها أكثر راحة حتى تبدو دائما مشرقة جميلة وابتسمت ممتنة.

السيدة سميرة طيبة من عائلة متدينة ، بشرتـــها بيضاء وشعرها أسود وعودها جميل ممتلئ كالبطة ، عيناها ساحرتان تغمضهما حتى لا تفتـــن الرجال ، كالقمر لولا سوء حظها فى زواجها مرة سابقة ، خاب أملـــها فى زوج مختلس دخل السجن بلا رحمـــة بعد أن اختلس مصروفات زواجه . كانت صدمة كبيرة وحيرتـــها أكبـــر ووجدت فى الدكتور سعد البلسم وابتسم الحظ وعاشت فى سعادة غامرة بعد أن رزقها الله بزوج طيب لا تسمع عنه ولا منه إلا كل خير ، وطفلين إن لم يماثلاها فهم أجمل وارق ثم أرسل الله لها هدية ، خادمة مطيعة .

ليلة كانت من أسود ليالـــى الدكتور سعد عندما استيقظت سميرة ولم تجده جوارهـــا ، وقامت تبحث عنه. قادتـــها غريزتـــها إلى ما سوف يكون . سارت إلى المطبخ . فى الركن إلـــى جوار الثلاجة ذات العيون المنكسرة المطيعة الطيبة كانت ترقد وفى حضنها الدكتور ، تحيطه بالحنان والدفء فى جو طالما أحبه ، رائحة بقايا الطعام والبصل والثوم وعرق العافية ورطوبة البلاط ، وهمس محرم وقلـــوب تدق من الخوف ، ولذة المسروق تطغى على كل مشاعره ، غارقا فى نشوة يراهـــا كل الحياة فى عينيه وعقله وإحساسه ، والأخرى فرحة أنـــها استحوذت على زوج الـــهانم . لقد أرادها وترك السنيورة . تماسكت سميرة وتوقفت . صدمت يدها قطعة من الورق فوق منضدة المطبخ التقطتها وحطت كالقطة وأمسكت بالدكتور . رفعته لأعلى يفصله عن إصبعيها قطعة الورق وسارت به عاريا حتى غرفتهـــا ولم ينطق سعد . واربت عليه الباب وعادت للأخرى لتجدها بملابسها كاملة واقفة منكسة الرأس كأنما مظلومة . قبل آذان الفجر ذات العيون المنكسرة المطيعة الطيبة كانت تسير خطواتـــها إلى خارج الباب .

بنت الحسب والنسب نارها نارـــن . موقف مر من سنوات وغار المختلس ، والليلة الدكتور فجر وعملها وطفلين لـــها والأيام . هداها تفكيرها أن تفعل مالا يمكن . كلمة واحدة لم تقلها لإنسان وكأن شيئا ما كان . الدكتور يومها فى الصباح حاول الكلام . أشارت إلى أولاده من زوجته الأولى . ذكرته أنه لم يرهم من سنوات طويلة ، ولن يرى أولادها إن نطق . وكانت الكلمة لـــها . سكت ومشى . مرت الأيام وسميرة أصبحت فى الحال غير الحال . الطيبة الأميرة بنت الأصول صارت الكل فى الكل . الكلمة كلمتهـــا ، وكلمتها طلبها . إشاراتـــها أوامر ، والدكتـــور يسمع

وحاضر وبسرعة . له سرير وحـــده ، وهى تنام فى غرفتها مع الأولاد ، سنوات وسنوات والله حليم ستار .

فى النادى كان هناك طفل أشقر جميل ضحكته عسل . مربيته بلون العسل أيضـــا ، تحمله على يدها ويده فيها لعبته وابتسامته يوزعها لكل الناس . رأيت الرجل العجوز يقترب ويداعب الطفل قليلا ويتكلم مع المربية كثيرا . ضحكت بخلاعة وظهرت أسنانـــها البيضاء . تركت الطفل على الأرض يتدحرج يلاعب نفسه . تفرغت للرجل واتسعت ابتسامتها أكثر . سارا معـــا وراء الطفل وأمسك الرجل يدها . تباعدت فى أنوثة . تـــمنعت فى رغبة ثم اختفت معه خلف الشجرة البعيدة فى ظلام الحديقة . رأيت الرجل عندما عاد . كان هـــو الدكتور سعد نفســـه . رأيته بعد ذلك بعض المرات فى حديقة الأطفال بالنادى ، يجلس هناك دائما قبـــل الغروب يداعب الأطفال والمربيات ، وقد يذهب إلى الشجرة البعيدة فى الظلام ثم يعود إلى كرسيه ويلتقط عصاه ويسير فى هـــدوء ووقار .

مـــــوت شركـــــــــة

وضع الأستاذ أنور بخيت يده فوق حافة المكتب والأخرى أمسكت بالكرسى الذى يجلس عليه متشبثا ، ومنفعلا ارتفع صوته يؤكد أنه لن يتخلى أبدا عن مكانه مديرا للمصنع والذى ظل محافظا عليه سبع سنوات متتالية ، والذى كلفه من الوقت والمجهود ومن أعصابه الكثير ، خاصة وأنه ضحى طوال السنوات بأشياء كثيرة من أجل أن يتبوأ الكرسى الذى حلم به عمرا .

لم يكن الآخرون حول الأستاذ أنور يقلون حماسا عنه وهو يدافع عن بقائه ، وانبرى أحدهم يعدد ويصف البطولات والتضحيات من أجل الشركة التى أسست فى بداية الثورة والتى أعطت كل إنتاجها للبلد عاما بعد عاما ، حتى كان الانفتاح الذى فتـــح الباب لكل من هب ودب ، فأقاموا شركات الاستثمار تنافسهم وابتلعت السوق وحدها بسرعة فظل إنتاجهم راكدا سنوات . كان المجتمعون قد سموا أنفسهم مجموعة الحكماء يجلسون كل يوم يتحدثون ويتباحثون ثم يلقون بالتهم على المسئولين بالحكومة أنـــهم تلقوا عمولات ورشاوى من الشركات الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتتفوق عليهم فى الإنتاج والبيع ثم الفوز بالأرباح .

انبرى الأستاذ فكرى فارس متحمسا هو الآخر ، ليعلن أن رصيد المخزون بعد السنوات قد تزايد وبلغ الملايين ، وأن المنتجات بمرور الوقت قلت كفاءتـــها وانخفض سعرهـــا عدة مرات حتى أنـــها الآن لا تغطى التكلفة ، وفى العام القادم سوف تباع بالوزن للتجار ، ثم فجر نقطة الخلاف اليومية التى يجتمعون حولـــها ، فقال إن الخطأ نبع مـــن مندوبى البيع الذين كانوا يوزعون الإنتاج فى السوق ، ويحصلون الثمن لأنفسهم ويوردون للشركـــة شيكات وأوراق دفع لأشخاص وهميين ، وكلف ذلك الإدارة القانونية والنيابة والشرطة والقضاء عبئا كبيرا لإثبات ذلك . بينما ترك هؤلاء المندوبين العمل بعد أن أثروا كثيرا من هذه العمليات القذرة ثم أفلتوا من قبضة الحساب فقد كانـــوا مهرة فى الاختلاس والتزوير والتدليس والنهب .

اعتدلت الأستاذة أمال السنارى وثبتت نظارتـــها فوق أنفها وقالت إن الخطأ كان من القيادات التى تولت الشركة متتالية ، وكلها حافظت على المنصب لآخر فرصة وكان همهم جميعا دائما أن يحصلوا على المزايا والرواتب والبدلات التى تعدت الألوف فى كل مرة ، ويتركون الآخرين يفعلون ما يريدون ليحصلوا على مرتباتـــهم وإجازاتهم كاملة . بالإضافة إلى المصيف السنوى بالإسكندرية ورأس البر ، علاوة على أتوبيسات الذهـــاب والعودة ومعارض السلع المعمرة بالتقسيط المريح جدا ، ثم إعانات المرض والزواج والوفاة وبذلك حصل الجميع على مرادهم . وهكذا توارى الاهتمام بالعمل والرقابة عليه إلى الخلف حتى تعدت النسب فى التالف أكثر من ربع الإنتاج وخوفا من المساءلة ألقوا التوالف فى بالوعـــات المجارى فانسدت وغرقت

عنابر الإنتاج والمخازن ، ووقفوا جميعا خارجا ينتظرون أن يحلها الله من عنده ، فصدر قرار وقف الإنتاج والبيع فى محاولة لالتقاط الأنفاس وهكذا كانت بداية النهاية بعد أن توقفت المحركات والآلات وثبطت همة الرجال أن يعودوا إلـــى سابق نشاطهم وفاعليتهم ، فجلسوا يتكلمون ويحللون الأسباب حتى يحين موعد الانصراف ليأتوا فى الغد فيكملون الأحاديث .

استمع الجميع للأستاذة وهى تفند وتفسر الموقف بطريقتها التى استعرضت فيها بلاغتها وقوة الحجة وعلو الصوت ، مستغلة احترام الموجودين لـــها فهى السيدة الوحيدة بالإدارة ولا يقاومون نفوذهـــا وسطوتـــها ، خاصة وأنـــها كانت جميلة من ربع قرن مضى ، وقد أفاض الله عليها نعمة الثراء بعد أن تزوجت صاحب ورشة أخشاب ، فركبت المرسيدس تثيـــر بـــها الغبار على العمال الذين يسبون حظهـــم كلما مرت عليهم فى الطريق وإن ابتسموا فى وجهها عندما تحول نظرها إليهم ، فإن تحت يدها كشوف المرتبات والعـــلاوات والإجازات ودفاتر الحضور اليومية وتتغاضى عن توقيعاتـــهم المتكررة المتسترة على الزملاء الغائبين ، وتعرف أنـــهم يتلاعبون فتلاعبهم بعض الوقت .

عندما أتى ذكر مندوبى البيع تـــهيأ محامى الشركة الأستاذ صلاح منيب للحديث ، فقد سبق أن أوضح مرارا فى الجلسات التى تعقد فى مكاتب رؤساء القطاعات أن مندوبى البيع هم سبب كل البلاوى ، وأنـــهم عندما عينوهم لم يتحروا عنهم وحملوهم بضائع قيمتها بالألوف مما دعاهـــم للسرقة ، وأن الانحراف كان مؤكدا وواردا وأنه شخصيا نبه أن هؤلاء لـــم يكونوا يوما من أبناء الشركة ، وليس لهم ولاء أبدا وقد تسببوا فى خسائر بلغت أكثر من خمسة عشر مليونا من الجنيهات ثمن منتجات وردت لأشخاص وشركات غير موجودة ، وأن هناك تلا من القضايا يحملها وحده فوق كتفيه يتمنى أن ينتهى منها قبل أن يحال للمعاش ، ويحمد الله أنه قد أدى واجبه فى جميع مراحل الانـــهيار ، وأنه الوحيد الذى مازال يعانـــى فالباقون لا يهمهم ولا يشغلهم أمر هذه القضايا ويعتبرونـــها ديونا معدومة .

ابتسم الأستاذ كارم خليل وشاركه بدر منصور فان الحديث أصبح لـــهما مادام محامى الشركة قد فجر قضية الديون المعدومة وهذا صميم اختصاص الحسابات ، قال كارم إنـــها قضية بسيطة إذا قورنت بحجم الخسائر الناتجة عن توقف البيـــع والإنتاج ، فان ذلك يكلف الشركة كل المصروفات الثابتة وأقلها المرتبات رغم أنـــها تزيد عن السبعة ملاييـــن كل عام تتزايد مـــع العلاوات الدورية والسنوية بالإضافة إلى الحوافز أيضا . وإن على الدولة أن تكفل صرف المرتبات مادامت قد أوقفت الإنتاج فـــهى المسؤولة أولا وأخيرا .

عيد ممدوح كان يجلس متحفزا كعادته عندما يكون مثل هذا الحديث دائرا ، يتلمس الفرصة أن يتكلم وسط المديرين يثبت للكل قدرته على القيادة والحفاظ على

الحقوق فقـال أنه لا يوجد إنسان يجرؤ أن يوقف المرتبات للحظة واحدة ، وأنه شخصيا يمكنه أن يخلق المشاكل لو حدث ذلك فان القانون كفل الحقوق .

كانت القيادة فى الشركة قد أصبحت جماعية بطريقة مبتكرة بعد أن اختفى رئيسها فى ظروف غامضة ، وقالوا أنه ربما مات وآخرون قالوا انتحر ، والبعض قال أنـهم أقالوه ثم حبسوه تمهيدا للمحاكمة . ثم فجأة أرسلوا لهم رئيسا جديدا ليس منهم ويجب أن يمارس عمله . وقـع الجميع فى الحيرة فقد كانوا يتوقعون أن يتولى أحدهم المسيرة بعد الانـهيار فهم أولى بشركتهم . والآن لابد من محاربة الأستاذ جمال الرئيس الجديد ليثبتوا أنـهم مازالوا فعالين ولهم صوتـهم ، ولابد أن يعين أحدهم بدلا من هذا الجديد الذى لا يعلم عن أمورهم شيئا .

احتار المديرون ، وعقدوا الاجتماعات السرية فى المكاتب وفى المنازل يخططون لحماية أنفسهم دفاعا عن مكاسبهم ، وكانت فرصة عيد ممدوح أن يتزعم المعارضة ، وقرروا ألا يساعدوا الرئيس الدخيل . آخرون عارضوا وقالوا يجب التروى فربما كان الحل على يدى القادم الجديد ، وتوارى البعض خوفا أن تنكشف أمورهم أو تضيع هيبتهم إذا ما تحركت الأحداث ضدهم .

استقطب عيد ممدوح المهندس أحمد عبد الغنى عندما وجد أنه قد استاء بشدة وانـهارت أحلامه بعد تعييـن الأستاذ جمال ، فقد كان المرشح الأول لتولى المنصب . وبدأ حديث النميمة الذى شاع بعد توقف الإنتاج ، وقالوا أن الرئيس الجديد قد أوفدوه لحرمانـهم من مزاياهـم ، ويجب المقاومة بيـد من حديد ولآخر جهد لديهـم ، وأطلقوا بعض الإشاعات ثم نظموا عمليات الاحتجـاج على مواعيد العمل وسيارات الخطوط وترتيب المصيف .
كانت هناك المفاجأة فقد وافـق الأستاذ جمال بسرعة على مطالبهم وأعلن أن لهم الحق فيها ورتب نقل عائلتهم بسيارات المصنع إلى الشاطئ ، بل وأصدر تعليمات بمواعيد تخفض وقت التواجد ساعة فى الصباح وأخرى بعد الظهر فاختصر لـهم الوقت . وبعد شهرين عاد وأنقص ساعتين مرة أخرى فأتاح للجميع الحضور والانصراف بلا قيـود ولا مشاكل . وظل فى كل مرة يترك الفرصة لتقليل وقت التواجد ، فأفقد المعارضين حجتهم وسكتوا إلى حين ، فرحين أنـهم استطاعوا اختصار الوقت ثم تعودوا على ذلك ، وبدا الأمر أشبه بـمدرسة للأولاد يحاولون فيها دائما الحضور متأخريـن والزوغان من حصص الدروس ثم الخروج قبل موعد الانصراف . فكانت الفرصة أن يتمتعوا بأوقاتـهم وبعضهم اشتغل بأعمال خاصـة ورتبوا أنفسهم ثـم تبعهم كثيرون ، وانتهى الأمر أن يحضروا للتوقيع ثـم ينصرفون وقد أحسوا أنـهم ضحكوا على الدولة والحكومة والرئيس الجديد .

الخسائر كانت قد بلغت الملايين ، والديون جعلت المحضرين ومندوبى المحاكم والشركات يواظبون على الحضـور لإثبات حقوق الكهرباء والتليفونات

والمياه والمؤسسات الأخرى التى كانت قد وردت أصنافا ولم تتقاضى مستحقاتـــها وكان الأمر يتطلب وقفة .
الأيام دائما حــملت شعارات كثيرة ، ولكن هذه المرة كلمة الخصخصة كان لـها الصدى فى النفوس واستجابة وتعشم الجميع أن ينالـــهم نصيب من الخصخصة الجديدة وباتوا يأملون . الأستاذ جمال كان عضوا فى لجنة تعمل على الجانب الآخر تقيس مدى فاعلية وجود الشركة على خريطة الإنتاج . وكان القرار بعيدا عن الخصخصة بعد تاريخ الخسائر المستمرة بسبب سوء الإدارة وتقدم التكنولوجيا وقدم الآلات وحجم الديون والأهــم عدم الجدية التى سادت بعد أن تعود الجميع على الكسل اللذيذ لسنوات عديدة .

أحاطت سيارات الأمن بمبانـــى الشركة بعد أن اعتصموا مطالبين بحقوق العلاج والمرتبات ثم البدل النقدى لكحك العيد ، ومرة تالية لحلويات مولد النبى ، وثالثة لطلب سلفة استعدادا لدخول المدارس . وفى كل مرة كانوا يرفعون شعارات تشجب التصفية ويهتفون نموت وتحيا الشركة ، ثــم ينصرفون بسرعة ليلحقوا أعمالـــهم الخاصة بعد أن اطمأنوا إلى أن مرتباتـــهم التى تصرفها الحكومة سوف تستمر فترة جديدة وتجدد لهم بطاقات العلاج المجانى ، وأنـــهم سيعيدون التفكير فى أمر إعادة التشغيل . ويبتسم عيد ممدوح أنه استطاع أن يثبت أنه حفيظ على المكاسب وأنه سيمكنه أن يعقد صفقة جديدة للسلع المعمرة تباع بالتقسيط ويحصل منها على عمولة مناسبة ، وأنه سوف يتمها قبل أن يفوت الأوان وسيرتب ذلك مع الآخرين .

كانت المناقشات كثيرة وحامية ، وانقسم الناس إلى مجموعات بعد أن كانوا مجموعة واحدة ، وكان ذلك أول أهداف الرئيس الجديد ، فإن الآراء قد تعددت بعد أن بدأوا التفكير، و حقيقة الموقف سوف تبيـــن للكل ، وأن المنتفعين سينعزلون ، والآخرين لابد أنـــهم سيفكرون بعمق بعد اتضاح الأبعاد .
فجر ذلك الموقف مشروع الأستاذ جمال الـــذى طرحـــه لأول مـــرة بعـــد المكاســـب الاشتراكية على مدى أكثر من خمسة وأربعين سنة مضت . وتحـــدث الجميـــع عـــن مكافآت نـــهاية الخدمة وبدأوا يحسبون حساباتـــهم . كان إيقاع تنفيذ المشروع سريعا بعد أن اطمأن الكل أنـــهم سيتقاضون حقوقهم كاملة ،وبـــدأ التخطـــيط للمشـــروعات الصغيرة وتجمعوا فى مجموعات .

مجموعة الحكماء الجديدة ضمت الأستاذ مصطفى وعفيفى وعامر والسقا وعزمى ورضوان وبعض الذين رأوا أن ينضموا للأستاذ جـــمال فى مشروعه . آخرين تحفظوا ومجموعة لـــم تحسم أمرها ، ولكن عندما بدأت تتضح الملامح النهائية للمكافآت سرعان ما تغيرت الكلمات والمواقف .

أول المتقدمين كان الأستاذ أنور بخيت الذى طالما تشنجت يداه فوق المكتب يحافظ عليه ألا ينتزعوه ، ومضى يعد حسابات المكافأة التى سيحصل عليها ويقنع

الآخرين أن تصفية الشركة الخاسرة هو مكسب كبير للدولة ،وإيقاف لنزيف خسائر استمر عشر سنوات كاملة ضاع فيها رأس المال . أما آمال السنارى فقد سارعت تقدم طلبها حتى تخلص إلى مشروعها الجديد فقد قررت أن تنشئ مصنعا للملابس الحريـــمى الجاهزة وانضمت إلـــى أنور تقنع الزملاء ، فلم يعد هناك أمل أن يدور ترس فى شركة خسرت كل مقوماتـــها . والآخرين مضوا يحاولون اختصار الوقـــت والإجراءات حتى يحصلوا على الشيكات فى أقرب وقت ،ولم يعد يهمهم ما إذا كانت تصفية الشركة ستغطى ديونـــها أو أن هناك شئ آخر يجب على الرجال الآخرين أن يفعلوه .

***

الآخـــرون يفعلونـها أيضا

في لقاء عابر تعرف أمين على سعيد وتعجب كثيرا عندما وجده يحاول أن يعمق التعارف بينهما بسرعة ويلح عليه ويطارده كما لو كان ليس هناك ما يشغله سوى صداقتـــه الجديدة ، ولكنه انزلـــق معه بالتدريج بعد أن اقتنع بأنه طيب ودود فنمت علاقتهما فى فترة قصيرة حتى دعاه سعيد إلى بيته .كانت هناك مفاجأة كبيرة فى الإنتظار عندما وجد لبنى أجمل مما كان يتوقع فقد بـــهرته فى أول مقابلة وكانت ترتدى ملابس ضيقه فأبرزت جمال الجسم والحركة والمرونة والليونة ، واختارت اللون الأسود فزاد جمالـــها تأثيرا ، فى الوقت التى كانت الملابس غاية فى الرقة والشفافية لا تحجب الأشياء تتحدى بـــها عينيه وإرادته وعفته أن يقاومها ولو للحظة ، وبدا جسدها فى الصـــورة التى يمكن أن يكون قد حلم بـــها يوما ولـــم يكن يصدق أن هناك من لـــها مثل هذا الجمال . توقفت عيناه وأنفاسه وعقله إلا أن نبضه لم يتوقف بل تزايد ليندفع الدم فى الدماغ ليصيبـــه نوع من الدوار ، وقرر أن يتماسك فالدخول فى مثل هذه المسائل يتطلب وقفة وترتيبا خاصا وإلاجرفه الطوفان اللذيذ وأحس أنـــها ستكون لـــه يوما ، ولم تمنعه صداقته لسعيد أن يفكر بـــهذه الطريقة فمازالت العلاقـــة جديدة واهية ، وفى المقابل كانت لبنى تقيمه وقررت أن تحتفظ بـــه ، وكأنما كان ذلك الشعور المتبادل عهدا غير منظور سعيا معا لتحقيقه.

أميـــن كان مازال فى أول الطريق . سنتـــان فقط بعد تخرجه والحياة كلها أمامه ، وفى لحظة أصبـــح لا يرى سوى لبنى حتى أنه قرر ألا يكون أمينا مع صديقه الجديد ، واستطاع الثعلب فيه أن يحس بما تدبره فتصنع البراءة وتركها تصيده بطريقتها محاولة المرة بعد الأخرى يرى استمتاعها بـــما تفعله ، يمسك نفسه ألا يندفع فهو يعرف أن ما يحصل عليه بسهولة سوف يضيع منه بسرعة ، ويخاف أن يفقد الجميلة . يراهـــا تستمع إليه ، تستوعب كلماته كما لو كانت عابدة ، وتحكى كأنـــها تعترف ، ليتوه لحظات فى بحور عينيها وشدو كلماتـــها وعطر أنفاسها يسكره ، ويفيق كأنما يدخرها للحظات أطول وأقوى .

أكملت لبنى مهمة المطاردة ، فبعد أن كان سعيد وحده يفعل ذلك صارت تطارد أمين ، وربطوه بينهما بمواعيد للنزهة والسهرة وتناول الطعام ، وأصبح يستطيب أن يكون معهما دائما حتى ساعات الصباح الأولى ، يعتمدون عليه وينصبونه حكما عندما يختلفون ، ويسألونه الرأى والمشورة ، وعندما مرض طفلهما كان هو الطبيب يقيس الحرارة ويوصى بالأدوية التى يعرفهـــا ، ويتابع تناول الدواء ثم يداعب الطفل ليتقرب أكثر إلى لبنى .

قدرت لبنى أمين ووجدته صيدا طيبا ولكنه صعب ، أو أنه لا يفهم بسرعـــة وربـــما كان بريئا أو يتخابث للغاية ، واحتارت ولم يغير ذلك قرارها بالاستحواذ عليه . بدأت بالاهتمام به . وبلغه العيون حاورته ، وجاورته فى مقعده تزاحمه وتلتصق به ، وارتدت الملابس الضيقة والقصيرة والمفتوحة ولم تحرك فيه أكثر من عينيه .

فى المشاجرة الجديدة حكت لبنى وبكت وتعلقت بملابس أمين أن ينقذها من العذاب ويحكم بينهما أن سعيد زوجها قد أخطأ ويجب أن يعتذر ، وحكم ورضيا بحكمه وكانت سهرة على ضفاف النيل قدم فيها سعيد فروض طاعته وتمنعت ثم قبلت الاعتذار ممتنة لأمين ، ونظرة بينهما باحت بأنـــهما يكابدا الفراق وهما معـــا كل يوم ، وهو يقترب إلى أقصى ما يمكن ثم يكبح نفسه ، وتتلهف على صيدها الثمين حتى كانت ليلة عيد ميلادها انفردت به وفاجأته بقبلة سريعة أودعت كل لهفتها فيها وتركته يترنح .

كان الواضح من البداية أن علاقة سعيد بزوجته فاترة للغاية ، وأنه كان يستعين بأمين ليتقوى به فى مواجهة لبنى التى بدت مسيطرة تفرض رأيها وطلباتـــها ولا يستطيع إلا أن يخضع ويستجيب ، فقط كان يشكو دون مقاومة وإن أظهر أنه يحبهـــا ويتمسك بـــها . لم يجد أمين سوى هذا المنفذ لكى يدخل منه إلى لبنى وأحبت ذلك ، بينما سعيد لم يكن ليفكر أبدا فيما يمكن أن يحدث بعد أن زادت أسرته الصديق الذى لا يستغنون عنه ثم لم بعد ذلك غريبا ، وهكذا أصبح لأمين الوجود الدائم فى بيت سعيد .

لبنى كانت تستمتع فقد ملكت رجلين فى وقت واحد . أمين سوف تتفرغ له ، أما سعيد فهى تعرف الطريقة التى تسكته دائما ، دموع وشكوى وبعض الصياح والحزن ليتغير ما ينوى عليه دائما . كانت ماهرة استطاعت أن تلفت نظره بعيدا عن أطماعها فى أمين الذى أزداد مظهره براءة بعد قبلة ليلة عيد الميلاد إمعانا فى التخفى .

كانت تنهيدة الراحة طويلة فرحة أنـــها انفردت به وضاحكة أمرت . إلى المنزل إذن . وهناك كانت نظرة العين ولمسة اليد التى تأخرت كثيرا ووصلا إلى نقطة اللاعودة . وعارية عابثة متصنعة البكـــاء وضعت يدها تخفى وجهها كالخجلى تواريه حتى لا ينظر إليهـــا تلومه أنه أوقعها فى الخطيئة ، وسرعان ما انتهت اللحظات ليكون بعدها ترتيبها لأيام كثيرة تنتظرها ويبدأ طريقهما معا .

منذ تلك الليلة أصبح لأمين وضعه الخاص صنعته هى فى اللقاء الأول وزادته بعد ذلك فأصبح يجده الأقارب والأهل فى بيتها يبدو كأنه يرعاه بعد سفر سعيد ولم يجد أن ذلك يشكل مانعا لديهم فتمـــادى وتمادت وغرقا معا تعلمه فنون حواء ليتخذ وضع التلميذ يستوعب ما تقدمه ، وصار ملكها تديره فى كل الاتجاهات ويستجيب ويتوقف عندما تعامله كسعيد ، فتفيق لتعود كما يجب أن يجعلها . وأدمنته

وأدمنها فقد كانا متوافقين متفاهمين ، يمارسان الخيانة بإصرار وتخطيط وإتقان وصبر عجيب .

أصبحت لبنى أنـــها حاملا ، وكانت فرصتها لإقناع أمين بالزواج ، فى الوقت الذى يحاول فيه أن يقنعها بالتخلص من الجنين . واستماتت حتى لا يفترقا خاصة وأن الطفل سيربطهما معا باقى العمر . وبدأت تخطط لطلاقها من سعيد عند عودتــه من السفر ، وأحس أنـــها تـــهورت عندما قالت أنه إذا اعترض فإنـــها سوف تقتله حتى تحصل على حريتها ، واستمع أمين مدهوسا عندما بدأت تخطط للقتل وتستعرض قدرتـــها والأدوات التى يمكن أن تستخدمها ، مما جعله يتوقف كثيرا بعد أن صار الاتجاه نحو جريمة أكبر من التى يمارسها .
قبل أمين أن تحتفظ لبنى بالجنين كذلك استطاع أن يوقف تيار التفكير فى الجريمة أو الطلاق ، مقابل وعده ألا يتركها عمره كله حتى قنعت بما هى فيه ، ثم تناسيا هذه المناقشات بعد أن عكرت صفو اللقاءات . أمين يعرف دواءها ، يتركها تتلهف اشتياقا ولا يعود إلا عندما ترضخ لما يريد ، ولما لم تجد نجاحا توقفت واستسلمت لتلد الطفل ، ولم يكن ذلك ليشكل مشكلة لسعيد ولا لها وإن كانت تلمز باستمرار أن الطفل يشبهه تـــماما وأنه من الصعب إخفاء هذا الشبه الكبير .

طالت الشهور والسنوات وتعود الجميع على ما هم فيه ، وكبر ابن أمين وسط أخوته أولاد سعيد ، وأمين يتغافل ويتناسى ولا ينكر ذلك فى قرارة نفسه ، وعندما تشاكسه لبنى فإنـــها تذكره بواجبه أن يتكفل بابنه حتى ينهى دراسته ويزوجه ، وكان يعرف كيف يسكتها ويظهر غضبه ويحرمها من نفسه حتى تدور حوله لترضيه وتعده ألا تثير ذلك أبدا ، فيمارسون حياتـــهم ثانية سعداء أنـــهم يسرقون ولا أحد يحاسبهم .

أرهقت أمين خيانة الدائمة لصديقه الغافل باستمرار ، وحصار لبنى له ألا يفكر فى غيرها بعد أن اعتقدت أنـــها تملكتـــه تماما ، وكان أمين كان قد وصل لدرجة من الشبع والملل بعد أن أرهقته شراهتها ونـــهمها تريده دائما جانبها ، لا هم لـــها إلا أن تكمل به حياتـــها وتستعيض به عن ضعف سعيد وغفلته ، ثـــم تتذلل وتظهر ضعفها حتى لا يتركها ، وتتوحش وتـــهدد أن تنتقم إن فكر فى الزواج أو انحرف تفكيره إليـــه ، فجعلته يبتعد طوال الوقت عن طريق كان قد رسمه لنفسه يوما أن يستقر ويهدأ ، وجعلته خائفا مهددا بانتقامها أو عقابـــها إن هجرهـــا فأحس أنـــها قيدته إلى جوارها زمنا طويلا .

قرر أمين الزواج وكأنما كان ينتحر أعلن الخبر ، فأصرت أن ترى عروسه ، ولم يدعها تفعل ذلك أبدا ، ثم اختفى فترة ، وعندما عاد وجد أنه كان يستطيع أن يفعل ذلك من سنوات فلا هى انتحرت ولا فضحته أمام سعيد أو الناس ، بل وجد

أنـــها استبدلته برجل آخر ببساطة ورغم ذلك استقبلته برقة تعاتبه وتحفزه أن يرجع إليها ولكنه لم يفعل وابتعد ينوى ألا يعود .

لم يفكر أمين أبدا فى ابنه من لبنى فهو يكبر مع اخوته أولاد سعيد الذى يتكفل بكل شئ ، وكأن قراره بالابتعـــاد والزواج والفرار من لبنى ليقنع لنفسه أن الولد ابن سعيد منكرا كل الماضى ، وهكذا قرر نسيانه أو خيل إليه ذلك .
استمرت حياة أمين مع زوجته مطمئنا أنه أقلع عن علاقته بلبنى ، وحملت زوجته وأنجبت ولدا فرح به ولم يرزقه الله أطفالا آخرين ، وأصبح خوفه الوحيد أن يتزوج الولد يوما وتكون الكارثة أن يختار إحدى بنات سعيد . إذن فلا بد أن يبتعد بـــاقى عمره عن سعيد ولبنى ، ولم يجهد نفسه فلا هم بحثوا عنه ولا هو حاول البحث عنهم وساعده القدر على ذلك حتى قارب الجميع النسيان .

دق جرس التليفون فى بيت أمين ليجد لبنى على الطرف الآخر بعد السنوات تداعبه وتذكره بالأيـــام تحاول بعث الحياة فيها وتخبره أنـــها أصبحت حرة ، فقد طلقها سعيد الغبى بعد العشرة الطويلـــة ، وأنـــه أظهر نذالته بعد كل ما قدمته له ، فتركت له الأولاد بعد أن كبروا وقاربوا الزواج ويستطيعون الاستغناء عنها وهى تحتاج ذلك لتستطيع الانطلاق كما تحب ، تدفعه للقـــاء . قدر أمين أنه لو ضعف فإنـــها لن تتركه إلا أمام المأذون ليتزوجها ويطلق زوجته أم أبنه الوحيد ، فتخلص بلباقة وحسم بل وبدا سخيفا حتى النهاية حى لا تعاود المحاولة .

صدم أمين لما وجد أن تقديره خاب عندما اكتشف بالصدفة أن زوجته تلعب نفس الدور الذى قامت به لبنى وإن تغيرت الأحداث والأشخاص ، لقد اتخذت عشيقا لهـــا ، واختلفت نظرته فأصبح يراهـــا كغجر الطريق . ولم يدم الحال طويلا فطلقها ليستريح ولكنها كانت أذكى من لبنى و اخفت كل شئ بمهارة حتى أنه لم يكتشف مصيبته إلا بعد أن وقعت وانتهى الأمر ، وعرف أنه كان مغفلا بالفعل لفترة طويلة مضت كان فيها مؤمنا عن يقيـــن أنه قد تزوج ملاكا مشاغبا بعض الوقت أو حورية هادئة معظم الأيام ، بل كان يمكنه أن يقسم الأيمان أنـــها طاهرة عفيفة ، إلى هذا الحد بلغت به الغفلة وبلغ بـــها الفجور . وجد أنـــها لـــم تخطئ حساباتـــها أبدا فحصلت على كل ما أرادت وطلاق سهل سريع ، وابنهما الوحيد الذى كان أمله من الدنيا سرعان ما انضم إلى أمه ليعيش مع عشيقها فى بيت واحد ليزيد حنق أمين ومرارته بعد أن ضاعت سنواته ، وتذكر عندمـــا تنازل برغبته وبكامل جبنه وأنانيته عن ابنه من لبنى وتركه لسعيد ، ثم لم يحاول أبدا أن يقترب منه ، ولم يرق قلبه أبدا ولم يحن إليه، ولكن ربما تذكره مرات .

لحظة تجمد فيها الزمن عندما تلاقى أمين مع ابنه من لبنى . أوقفه الشاب فى الطريق مرحبا ، فقد تذكر الصديق القديم لوالده والذى أحبه ، وقف لحظات ليحكى عن أيام طفولته عندما كان يراه فى منزلهم ، ويبتسم ويتقرب ويتودد ويحكى معتزا

بأبيه يحاول أن يذكر أمين الذى يتناسى الأسماء والحوادث ويقول ربما ، إنى أنسى هذه الأيام أشياء كثيرة ، ولم يسأله عن أخوته أو عنوانه أو عن لبنى ثم اعتذر وانصرف وترك الولد مدهوشا من تصرفات الرجل العجوز .

عرف أمين الشاب ، ورأى قوامه وشعره وعينيه وكل ملامحه ، ولاحظ طريقة حديثه وأحس بالحنين . دار عقله حائرا ولم يجد ما يفعل ، لقد تصرف هكذا ولا يملك غير ذلك لا يريد إحياء الماضى الذى فر منه دائما وهرب الآن . لقد تنازل عن أبوته فتنازل الذى يحمل اسمه عن الأبــوة التى قدمها إليـــه طائعا مختارا . كل اختار طريقة ، وانتهى الأمر ولم يعد أبا لا لهذا ولا لذاك ، وكما فعل بسعيد فعلها الآخرون معه ، وتمتم أولاد الكلب ، وسار مقطبا يسائل نفسه فى تعجب ، لماذا لم يتمتع بأولاده مثل كل الآخرين .

***

زوج مثالى جــدا

عمرى خمسون عاما ، ولى أربعة أولاد فى مختلف مراحل التعليم ، وزوجتى تصغرني بسبعة أعوام وأنا أحبها وسعيد في حياتى . إلا شيئا واحدا عانيته كل السنوات ، والسبب أنا ، فقد عودتـــها ثم تعودت أنا ، ولما حاولت العودة لم أنجح .

أحببت زوجتى منذ خمسة وعشرين عاما وكنت دائما أحاول الحصول على رضاها وأجنبها المشقة والتعب ، فكنت أؤدي الأشياء عنها وأخدم نفسى دائما . كنت أرفع ملابسى فوق الشماعة ، وأرتب سريرى وأجهز الفطور وأصنع الشاى ، ولا بـــأس أن أغسل الأكواب والأطباق فى حوض المطبخ ، كان ذلك فى العام الأول لزواجنا .

بمرور الوقت كنت أساعد فى ترتيب وتنظيف المنزل ، ولم يكن هناك مانعا أن أغسل بعض الملابس . كل ذلك لقاء قبلة طائرة ولمحة الرضا فى عينيها حتى صارت عادة أن ترجئ ما تريد أن تفعله حتى تحين فرصة أساعدها فيها .
تدريجيا متعللـــة بالمـــرض أو التعب وأحيانا الغضب ، صارت كل هذه الأعمال هى ما أختص به فى المنزل ، أضيف إليها فرم اللحم وتقطيع البصل وتقشير الثوم وتجهيز السلاطة ، ونقاوة الأرز ومراقبة الأكل فوق النار حتى ينضج ، واكتفت بتحديد المقادير ، ثم صار ذلك ثابتا ضمن واجباتى ، و أضافت الأيام طلبات الأولاد . كان على أن أجهز رضعاتـــهم ، وفى بعض الأحوال أغير ملابسهم الداخلية ثم أغسلها بعد ذلك . وعندما كبروا كنت أجهز السندوتشات وملابس المدرســـة وأساعدهم فى ارتدائها وأقوم بتلميع أحذيتهم ليلا حتى لا يروننى ، وقبل ذلك كان لا بد أن أعاونـــهم فى واجباتـــهم المدرسية .

عندما مرت الأعوام ، وجدت نفسى أقوم بكل المهام كما لو كانت زوجتى غير موجودة ، وكانت تكتفى بالأشراف ، ثم تنشغل فى أعمال التريكو والكانافاه أو التليفون وربما تؤدى بعض الواجبات الاجتماعية ، وحاولت أن أقنعها بأن يكـــون لدينا شغالة فكانت ترفض دائما ، وعندما أجبرتـــها طردتـــها بسبب تافه ، حتى مـــرت السنوات وأحسست الإرهاق فاشتريت الأدوات المنزلية التى تختصر الوقت والمجهود لعلها تستخدمها ، ولكن كلها كانت من نصيبى .
كان سلاح زوجتى فى الضغـــط الادعاء بالتعب أو المرض ، ثم تطور إلى المكافأة ، فكانت ترضى أن أكلمها برقـــة وأضع يدى على كتفها ، أو قد تسمح لى بمعاشرتـــها . وحتى لا تضيع فرصتى الذهبية فانه يجب على أن أستحـــم فإن رائحتي لا تطاق بعد العمل الشاق طوال اليوم .

حاولت بعض المرات التزويغ من الواجبات عندما كنت أغضب ، ولكنها كانت قديرة تحتوى غضبى بطرق مختلفة ، ولم أستطع أبدا أن أشكو إلى الأصدقاء أو للأقارب شيئا من هذا ، ولا أن أكلف الأولاد ببعض الأعمال فوقتهم بالكاد يكفى مذاكرتـــهم ، ثم أنـــهـــم لم يتعودوا هذه الأعمال لا الصبيـــان ولا البنات . وتعللت بالمرض والتعب والمشاوير الخاصة ، ولكـــن سرعان ما تركت هذه الطريقة فان كل هذه الأعمال كانت تنتظرنى حتى أعود ، وإذا لم أنجزها علـــى خير وجه فإن وجه زوجتى يتغير تماما ، وكذلـــك معاملتها ، ورضاها عنى يصل إلـــى الصفـــر ، وتظـــل هكذا حتى أفيق وأعود لنفسى فأؤدى المهام التى تعطلت أثناء تفكـــيرى فى التمرد .

تحملت سنوات حتى شاب شعرى وطار أكثر من نصفه ، ودخلت طور الكهولة وأولادى كبروا وأصبحوا يفهمون وينظرون نظرات أفهمها ، وقد يعلو صوتـــهم من بعيد مطالبين بالشاى والطعام ولـــهم حجتهم فـــهم يذاكرون ، وعلى أن أجيب الطلبات ، بينما هى تشاهد التلفزيون أو تنام أو تنشغل فى أشيائـــها الخاصة.كللت هذه الأعمال ، وأصبحت أتحاشى نظرات الجيران عندما يروننى أنشر الغسيل أو أنفض السجاجيد أو أكنس الشرفة كذلك لا أستطيع أن أترك المنزل فإننى أحبهـــا ، ولم أفكر أبدا أن أتزوج غيرها أو أنقل عملى إلى بلد آخر وأتركها لأستريح .

أفكر فى طريقة أجعلها بـــها تحترم شيبتى وسنى فى المستقبل أمام أزواج أولادى وأحفادى .لقد وهن الجسد وكبر الأولاد . العام الماضي رقيت إلى الدرجة الأولى وأصبح الجميع يحترمونني فى كل مكان ولم يشفع لى ذلك . أتوق إلى الراحة وإلى احترامهم ، واحترامي لنفسى . إنـــها غلطتى وأقر بـــها فقد أصبحت أحس ببعض المهانة ، أيضا أعترف أن شخصيتها كانت أقوى منى كثيرا ولكن لم أستطع أن أتحداها أو أخالفها أبدا .

أنا صادق ولا أخفى ضعفى وحبى لـــها ولأولادنا . تفانيت خلال ربع قرن بإخلاص ويحق الإفراج لو كنت مسجونا ، أو الترقى إن كنت طباخا أو شغالا لديهم .فقط أطمع أن يؤدوا عنى بعض الأعمال .
لا ... يجب ألا يفعلوا ، فلا أتوقع أن يقوموا بـــها كما يجـــب .ثـــم إنـــــهم ســـوف يفسدون أشياء عديدة عندما سيحاولون ، وقد فكرت أنى لو مت فإنـــهم لن يستطيعوا ترتيب حياتـــهم بالصورة التـــى أحب أن تكون . الآن يجب أن أترك ما أكتبه فلـــدى بعض المـــهام التى لا تحتمل التأخير فمازال الأكل فوق النار ، ويجب أن تكون المائدة جاهزة فى موعدها تماما .

***

أنفها المستقيم

كانت تتمتع بمزايا كثيرة بـــهرته بـــها أول زواجهما ، فكان لا يرى ســـوى جمالـــها وخفتها ومهارتـــها ، وكاد يقنع بما قسمه الله له لولا ذلك الأنف الذى كـــان له بالمرصاد . ذات ليلة كان يرنو ليتحقق من جمال وجهها ، وكانت تجلـــس جـــواره تراقب برامج التلفزيون ، فاكتشف صورتـــها بالجنب ورأى شيئا عجيبا لم يلحظه قبل ذلك . وجد أن أنفها يصنع مع جبهتها خطا مستقيما يتجه إلى أسفل دون انحنـــاءات على الإطـــلاق ، ثم وجد أن استطالة أنفها قد امتدت لتغطى جزءا كبيرا مـــن شـــفتها العلوية ، فسارع ليجلس أمامها ليرى كيف يكون شكل أنفها من الأمام وزاد عجبه .

بعدما مرت سنوات ، وجد أنف محبوبته قد كبر وسمن قليلا إلا أن طوله زاد بدرجة ملحوظة. ولأنـــها أريبة فقد كانت تخفى ما حباها الله به من بسطة فى عظام الأنـــف ، فترسم عينيها وشفتيها وخدودها تخفى ظلالا وتضيف أخرى حتى تجذب الأنظار بعيدا عن سرها الكبير .
ولأنـــها ذكية فقد استخدمت هذه الهبة منذ سنوات ، فكان فى محفظته مرة وأخرى فى بعض جيوبه ، وثالثة فى أوراقه ، ثم أمتد أنفها لتتسع دائرة فضوله إلى الأصدقاء وبدأت تدسه فى شئونـــهم ، ثم شئون أخوته وعائلته ، وكانوا فى معظم المرات يتركونـــها بعد أن يكتشفوه ويلومون أن أنفها يتشمم أخبارهم ويتدخل فيهـــا ، إلا أنـــهم فى بعض المرات استخدموا القوة لمقاومة تدخله وأدموه كثيرا ولكن لم تترك عادتـــها السخيفة.
لما قبلها مفتوح العينين ضايقه أنفها المستقيم ، فأغمض وصدمه مرات ، فاضطر أن يقلع عن ذلك. امتد أنفها الجرئ ليتداخل قسرا فى أعماله ويتسبب فى فشلها بعد أن ألحت أن ينفذ ما تراه فأنفها لا يخطئ أبدا .

وجد صاحبنا بحثا فى علم الفراسة عن شكل الأنف ، فمر بسرعة على كل الأنوف حتى وصل إلى أنف محبوبته المستقيم وقرأ ما كتبوه مرات ليدرس ويفهم. هاله ما كتب عنه الأطباء والعالمون والخبراء فى هذا العلم العجيب .
وجد أنـــهم لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة إلا وكتبوا فيها. إن كلامهم صحيح ، صادقين لأنه يلمس ما كتبوه فى حياته معها كل يوم . قالوا أن ذكاءها فطرى يتعلق باحتياجاتها فقط ثم يتناقص فى باقى الأمور . تمتاز بالابتكار، فعندما عـــاد يوما للمنزل وجد أنـــها غيرت أماكن بعض قطع الأثاث واقتصر ابتكارها على هـــذا. ثم أنـــها تستطيع أن تكون ربة منزل وقتما تشاء ، ويتجلى هذا أمام الضيوف فقط ، وتستطيع أن تخزن قدراتـــها وإمكانيتها لأوقات النقار والشقاق ، وساعتها تظهر كل ما لديها وتتعاون جيدا ربـــما مع الشياطين لا ذكاء نيران معاركها حتى تكسب الموقـــف .
كتبوا أنـــها باردة العواطف بليدة الحس مع أنـــها عاطفية جدا وتنفعل عندما ترى الأفلام العربية ، إلا أنها عندما تشترك فى مشادة أو نقاش يتعلق بالآخريـــن فلا

تهتم أن يسعدوا أو يشقوا ولا رأيهم أو ماذا يفعلون من أجلها ولا تقدر حجم معاناة الناس . صح هذا الكلام . أنانية تأخذ كل شئ وتحرم الآخرين ، وتحاول الحصول على النقود دائما .
تنقلب أنانيتها بخلا تأخذ دائما ولا تعطى أبدا حتى أخذت نقود أولادها ، العيدية جمعتها منهم ثم استولت عليها . ظالــمة مفترية ألحقت الضرر بزملائها ، وكذا البواب وعامل الجراج واحتقرتـــهم كلهـــم ، ورفعت أنفها عالية لتشمخ فوق الجميع ، ولم يسعفها شكل الأنف فأزاحت رأسها للخلف ليكون طرفه عاليا ، وسارت متكبرة على خلق الله ، وهكذا كـــان الأنف المستقيم أفقيا على سطح الأرض ، وربما ضايقها ذلك الوضع بعض الوقت فتستريح ثم تعاوده .

أحس أنها دست أنفها فى عقله عندما حاولت اللعب فى خلايا الذاكـــرة والعواطف ، ثم ندمت عندما اكتشفت أنه يتعجب من أنفها وأعمالـــها ، وأنــــه أصبح لا يحبها ، فقط يكتفى بحسن الجوار مراعاة للعشرة والأولاد . ثم اكتشفت أن لـــه رصيـــدا فى البنك لم يخبرها عنه . فأزاحت أنفها بعيدا وتركته غاضبة وذهبت عند أمها لتستريح بعد عناء البحث داخل عقلة فى المرة السابقة .
ثم كانت المفاجأة ، لقد أحس بالراحة هو وأولاده رغم أن مكان الأنف قد أصبح شاغرا ، فكانوا يتحركون بحرية وانطلاق . وذاكر الأولاد بطمأنينة وناموا مبتسمين فى فرح لذلك . وكان غريبا فى الليلة الأولى ألا يكون الأنف إلى جواره ليحدق فى غرائب صنع الله ولماذا جعله هكذا ، ولم يقربه الأرق لا هذه الليلة ولا أى ليلة أخرى ، ثم عادت ذات ليلة فتحفز الرجل يتوقع المعركة . وفعلا صاحت وغضبت وطلبت الطلاق ، وطلقها ولم يكن يتوقع أن الخلاص سيكون سهلا ، وبسرعة لملمت أشياءها ومعداتـــها وأسلحتها الخفيفة والثقيلة وانسحبت من حياته .

ذات الأنف المستقيم رآها تسير فى الشارع فى خيلاء رافعة أنفها عالية باسقا متوازيا مع سطح الأرض واضعة يدها فى ذراع رجل جديد . وللعجب كانت له نفس الموهبة يسير بنفس الطريقة رافعا أنفه المستقيمة إلى أعلى لتكونا معا متوازية . أما الأغـــرب فإنه وجد أنفها قد تضخم واستطال بعض الشئ وابتسامة مطمئنة نصفها يغطـــى وجهها والنصف الأخر يغطى وجه الرجل بجوارها . عندما تزوج صاحبنا للمرة الثانية نظر جيدا ودقق ، ولم يكن هذه المرة أنف السيدة مستقيما .

***

الإيحاء والإيماءات

بطنى أصبحت فولاذية بعد أن امتنعت عن الملينات والمسهلات ثم انغلقت على نفسها أياما حتى أصابنى انحراف المزاج بعده الصداع والعصبية . ليلة الأمس ارتفعت درجة حرارتى ، ويبدو أنى أصبحت أرى الأطياف وأسمع الهلاوس بسبب قولونى اللعين الذى لم تجد معه العلاجات الطبية ولا الوصفات البلدية.

كالطبل المكتوم انتفخت بطنى مشدودة تصدر أصوتا ترن فيها وفى صدرى ومخى بعد أن توتر جلدها من الضغط ولم أعد أطيق لمسها ، وظلت تنتفخ حتى أصبحت كالبالون أرتفع عن الأرض وأمشى بخفة رغم الألم ، ودفعنى النسيم فأخذت أعلو بنعومـــة حتى رأيت الأشياء من فوق وصرت أفهم ما يدور .

***

رأيتنى طفلا فى السابعة أمشى جوار أبى ، أدخل معه محل الحلوى الشـــهير ، نســير حتى نخرج من الباب الآخر .

أسألـــــه – لماذا لم نأكل من الحلوى ونتناول الشاى مثل الجميع .

يسألنى هو الآخر – هل أنت جوعان ؟

أجيبـــــه – لا .

يجذب يدى ونستمرفى السير خارجا ونذوب فى زحـــام الســـائرين ،تتعلـــق عينـــاى بالملابس واللافتات والألوان.

***

حبك نار .. نار يا حبيبى نار ،كلمات أغنية شهيرة تداعب أذنىّ.

أقـــــول لأبى – احك لى قصة حب .

أسمعـــــه يقول – إن الأب يحب أولاده والأم تحب أولادها أيضا ، والأولاد يحبون أباهم وأمهم وإخوتهموكلهم يحبون الله ، والله يحبنا جميعا.

خذلنى أبى لأنى توقعته أن يحكى عن الرواية التـــى عرضـــوها ليلـــة الأمـــس فـــى التليفزيون .

***

أقف مع أبى على محطة الأتوبيس الذى يأتى مزدحما، نركب بصعوبة محشورين، ننزل عندالبيت.

أسألــــه. – لماذا لم نركب سيارة أجرة؟

يقـــول – الأتوبيس أوصلنا إلى نفس المكان

أقـــول – سيعيب الناس علينا ذلك.

يقــول - هم يعرفوننا جيدا .
يقابلنا الحاج عبد اللطيف وعم ساويرس ، يصافحون أبى فى ود وحرارة . أنسل منه وأخطو إلى البيت .

***

أركب الطائرة من مطار لاجوارديا بنيويورك إلى باريس ومعى أســرتى ، أرى المضيفة تنتظرنا ، تصطحبنا فى سيارتها إلى فندق خمسة نجوم .
يسألنـــى ابنى - لماذا كانت تذاكر الطائرة بالدرجة السياحية؟
أقول - لقد أوصلتنا نفس الطائرة إلى مطار باريس. أرى وجه الولد يمتعض فى حيرة، أقول لنفسى ، يرحمك الله يا أبى .

***

أحس بمن يرجنى رجا . توقعت زلزالا أو بركانا ينفجر تحتى . لا أدرك الذى يقع ، لكنى أشعر أن شيئا هاما يحدث فى اللحظة وأنه جد خطير فتقلبت أفكارى بسرعة عظيمة .
أدركت أنى مقبل على موت ، و أنها النهاية الحتمية التى يتوقعها الجميع مفاجئة والتى لم يحك أحد عما بعدها أبدا . أخاف بشدة ، تتيبس أطرافى ، لكن عقلى لا يزال صاحيا . قررت أن أستغل الصحوة لأسجل لمن بعدى الأسرار المخفية . سكنت الرعشة عن جسدى ، أحس ببرودة تشملنى وتصفر المرئيات ودوار خفيف يلم بى ثم يروح . تتداخل الأفكار المرتبة والإرادة ، لا أتحكم فى حركتى أو فكرى . أصبحت كمن يملى عليه ما يجب أن يتحركه أو يتنفسه أو يفكر فيه بشعور جارف بالعجز والهذيان . يتملكنى الرضا الكامل بما يحدث ، استسلم لمقاديرى فلم يكن خوفى من الموت سوى الخوف من المجهول الذى يحير الجميع . إذن الموت هو خوف ، والمجهول هو المقسوم الذى هو صنعى فى أيامى ، فعلته كله بكامل وعيى وإرادتى ، ثم لا مهرب ، فاتضح لى مآلى فتملكتنى الرعدة ثانية .

تعالوا إلىّ جميعا لأحدثكم حديثا كان ، لكم أن تبدأوا مآتم موتى وتجهزوا البكاء والجنازة وأنا ما زلت بينكم أنتم الأحياء ، فإننى أتغطى بالظلام الآن ، وأرى الموت كاملا يدخل إلىّ ، وما عدت أرى من الحياة إلا بصيصا .

انتظروا قليلا ثم سوف أتخلص بالروح من الجسد مجتازا الدرب فقد مات كل من صارع الموت . تروح روحى مملوءة بزمانى الذى كان وفوقه الذكريات والأحلام وقليل من الفرح ، ثم إذا ما اثاقلت متشبثة بالدنيا يلذعها حارس الروح بسوطه الإلهى لتستمر فى السير حثيثا إلى هناك . بدأت أدرك أن الموت هو قمة للفقد الإنسانى ، ثم بعده الراحة الكبرى بعد عذاب أتوقعه قصيرا ، والآن فقط عرفت أنه يموت كل من لم يحسن الحياة .

كهف النائمين إلى الأبد ، أرى فوهته المليئة بالظلام ، يملأ الظلام عينىّ والسكون أذنىّ ، وتروح روحى بعيدا تسبقنى كأنما تريد أن تلحق بالنائمين هنا ، فتفتر قوتى وتنحل عزيمتى أن أقدم خطوة واحدة للأمام كأنما كثر علىّ أن أموت الآن . أمامى ظلال الراقدين ، سأنضم إليهم ، الاختيار إما الآن أو بعد قليل. أهم أن أتراجع بعيدا عن هؤلاء الذين لم يدركهم البلى بعد .
أرى الفوهة أمامى كأنها حية تتنفس رافعة ذراعيها لتستقبل الآتى الجديد . يا أهلى .. أنتم كواكب هذه الأرض فلا تهيلوا التراب على قبرى الموحش ومن فيه، فإن صمت المقابر اليوم يخيم خارجها وداخلها أكثر من أى يوم سابق ، أعرف أنكم تقولون سوف ننسى فقد مات كل ما فات .

أرانى على الطريق الضيق ، علامات التحذير تومض على اليمين واليسار ألا أقترب من الحافة التى بعدها السواد ، مدفوعا إلى الأمام بانتظام بقوة حارس لا مرئى . أستطيع أن أنحرف كيفما شئت حتى ضاق السبيل وأصبح عرضه إصبعا واحدا ، ويتسع إدراكى لأحيط بما حولى . أراهم يتساقطون عن يمين وشمال فأدركت أنى هالك عندما يحل علىّ الدور . تتعثر أصابعى فى نقود وجدتها فى جيبى ، أفرح أنى سأستطيع أن أهبها للحارس فلا يدفعنى، أو إذا كنت محظوظا فربما يمكننى إعطاءها لحارس الحديقة فيرشدنى إلى مكان فيه النسيم والفواكه والرياحين . أدركت أن ما سأفعله سيوردنى للتهلكة ، فكيف لى أن أفكر من البداية أن أشترى ضمائر الحراس فيخونون الأمانة ؟ ، وعرفت إنى سفيه كما كان عهدى فى كل ما كان من حياتى .

سكين ينزرع فى جنبى الأيسر ، أهبط ساقطا ، يدخل فى ظهرى عمود من حديد لينطلق الألم كأشعة الشمس محيطا بقلبى ومعدتى ، تأوهاتى وصراخى لا ينفع ، فلا الألم يتوقف و لا أحدهم يلحقنى فيسعفنى . يمر علىّ الوقت بطيئا ثقيلا .

تخرج من داخلى صرخة ، تطلق الحزن ، تزيحه عن صدرى . يعبق المكان برائحة الذكرى ، أعرف أن صداها قد لا يأتى إلا بعد الموت ثم أحاسب بعد ذلك على العصيان . أراجع نفسى مغمض العينين فى لحظة الوعى فأنا ما زلت إنسانا ، أبكى حرقة فراقى ، أخفى أنينى .
مركبة تثير الغبار خلفها جعلت بينى وبين الدنيا سياجا ، أسأل نفسى لماذا لا أفكر إلا فى هذا الصمت والترقب ؟ .
صورتى تطالعنى فى المرآة ، أرى البشرى مصفرة ، والعينين غائرتين محتقنتين ، والشعر منكوشا ، والملابس مهوشة كأنما أرى إنسانا غيرى . أخطو إلى الحمام ، أكاد أتعثر ، تلحقنى ذراع ابنى تسندنى فى قوة وتصميم فيشملنى الرضا و الاستسلام .

***

قدم السعد

أقعد مع الرجال على المقهى أنتظر وصول الحاج بيومى.الجميع يتجاذبون الأحاديث ويتناولون المشروبات من كل نوع. عيون الكل ترتفع متطلعة فى اتجاه واحد نحو أول الطريق بالتبادل ، كأنما يقسمون واجب المراقبة بينهم ،ويستمرون فى إلقاء زهر الطاولة وقطع الدومينو ، بينما صبى المقهى يدور بينهم يناولهم المشروبات ، أو يغير جمرات فحم الجوزة أو يضع فوقها حجرا جديدا.

سرت فى القاعدين حركة متوحدة ، وراحت عيونهم جميعا الى هناك، بينما توقف زهر الطاولة وقطع الدومينو ودخان المعسل المتصاعد ، كما استراحت ليات النرجيلة فوق المناضد.

وقف أحد الرجال وتوالى وقوف البعض. نظرت مع الباقين فى نفس الاتجاه لأنى أيضا أنتظر. توقفت المرسيدس وفتح الباب لينزل الحاج بيومى فى تؤدة يلملم شأنه ثم سأل السائق..

- النهارده إيه فى أيام ربنا... ؟
- الثلاثاء ياحاج... وابتسم مطرقا.
- طيب... يبقى صينية السمك ع الفرن.. انت عارف.
- حاضر ياحاج... واتسعت ابتسامته.
- الساعة أربعة الصينية تكون هناك. إياك تغلط..أدبحك.

حاضر يااحاج... وظهرت معظم أسنان السائق فى ابتسامة أعرض يؤكد للحاج أن الرسالة قد وصلته وسينفذها بينما يدور حول مقدمة السيارة يحمل بعض الأشياء ويفسح الطريق.

رفع الحاج بيومى ذراعه ونظر ليحيط بالحاضرين وقال.."سلاموعليــ .." وقبل أن يتم الكلمة كان الكل يرد تحيته ويفسح مكانه المعروف ليجلس مديرا نظره فى الوجوه.

يتقدم إليه ابن أخيه يهمس فى أذنه بكلمات بعدها ينظر الحاج فى اتجاهى رافعا يده بالتحية ويميل للأمام على الكرسى كأنما يهم بالقيام لأتقدم إليه مصافحا فتملأ كفى يده القوية.

أمامى يجلس الحاج بيومى وفى قدميه حذاء أصفر اللون ككل أهل الريف المصريين فى القرى المنتشرة على طول الوادى ، بنفس لون البلغة والمركوب من أيام جدى الكبير. يضع على رأسه طاقية من الصوف لف حولها شالا أبيض بلون ضوء النيون ، ويرتدى جلبابا ظهر من تحته صديرى منتفخ الجيوب فوق فانلة بكم طويل وسروال يغطى ساقيه حتى الجورب الذى ظهر عندما كان يعدل وضع قدميه وانزاح عنها الجلباب.

أراه يستمع ويهز رأسه بهدوء موافقا على كلام أحدهم ، ثم يستدير يلعن الآخر وكل أقاربه لأنه تجرأ محاولا الاعتراض.

الكل يعمل حساب الكلمات ، وكل شئ فى حضوره بقدر . يجلس الرجال حوله يعلقون أنظارهم بشفتيه انتظارا أن يتكلم ، مستعدين لتلبية احتياجاته . كلهم رجاله وأنا وحدى الغريب ، تساءلت من يكون هذا الرجل..؟

أتملى فى وجه بيومى محاولا فهم سره . أراه عاديا كملايين ، البشر فى صعيد مصر ، يحمل وجهه نفس القسمات والنظرة الهائمة البعيدة كأنما يدرس مسألة حساب صعبة لا حل لها ، ثم يفاجئ الجميع أنه يدرك كل دقائق الأمور بعد أن ملأ الاطمئنان قلبه فكان واثقا.
أقترب ، أتجاذب معه الحديث بعد أن انصرف الرجال ، أقود الحوار أن يحكى لأكتشف ، ويبدو أنى أثرت شهيته للكلام.. وبدأ.
قـــال .. سنوات طويلة لم يزرنى الدرويش ، لقد اشتقت الإسكندرية.
سألت .. من يكون درويش هذا..؟

" إخص عليك.. الله يخرب بيتك. ح تودى الناس فى داهية وتموت كافر كمان..افتكر دينك وربك يا مسلم." رفع الدرويش ذو الشال الأخضر يده لتهوى فوق صدغ بيومى بعد أن جذبه من تحت القطار الذى بدأ يتحرك ، فهمد بيومى وانحط جالسا يبكى. ولم يكن مفهوما للناس ما إذا كان البكاء أنه نجا ، أو اللطمة التى أصابته ، أو حظه السيئ الذى دفع بالدرويش إليه ليجذبه خارج القضبان قبل أن تدوسه العجلات فيضطر أن يكمل حياته أو يفكر فى طريقة أخرى للانتحار.
انفض الجميع بعد أن مضى القطار وتركوا بيومى وحيدا يبكى بعد أن أفسد عليه الدرويش الموت الذى يتمناه للخلاص وخطط له وشده بعيدا حتى لا تلحقه العجلات عندما تحرك القطار من المحطة.

وقف بيومى فى محطة البضائع بالإسكندرية والدموع تكاد تفر من عينيه ، فحمولة أربع عربات من القصب الذى ملأه السوس لن تجد من يشتريها والسنة القادمة ستكون فقيرة مفلسة مثقلة بالديون بسبب محصول هذا العام ، ولا يدرى كيف سيتصرف.
كان بيومى يفكر فى معجزة من السماء عندما رأى أمامه نفس الدرويش صاحب الشال الأخضر فدهش بشدة ، وقام ببطء ينظر متعجبا كأنما اعتقد أن الرجل يطارده حتى الإسكندرية .
اقترب الدرويش وقال " اطمئن يا بيومى.... يفرجها علينا وعليك بإذنه." ، وانصرف بسرعة كما ظهر ، وجلس بيومى ناظرا إلى قصبه الضعيف حيرانا من الظهور المفاجئ لهذا الدرويش العجيب مرة ثانية ويدعو الله أن يحلها من عنده.

قبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم الغريب ظهر لبيومى من يعرض ثمنا معقولا للقصب. قال.. "اسمع سأشترى نصف الكمية فقط ، وأعرف مكان محل للعصير

صاحبه يريد أن يؤجره.. لماذا لا تحاول وتعصر قصبك فى محلك والربح سيكون خالصا لك."
سيوافق عليه سيكون ورطة أخرى يقع فيها هذه المرة باختياره.

يرتب القدر كل شئ ويكسب بيومى ربحا معقولا في فترة وجيزة ، واستطاع أن يؤجر سكنا مجاورا واستقدم زوجته وابنه ليعيشوا معا بالإسكندرية ، فيستقر ويبيع العصير والقصب المعصور وقودا ، ويشترى من القادمين فى محطة البضائع كما بدأ مشواره فى طريق الثروة ، وتمر السنوات يكبر فيها بيومى وثروته الصغيرة ، ربما ستون عاما أو أقل قليلا كان فيها الزمن غير الآن وحدث فيه الكثير.

كما يختفى الدرويش يظهر فجأة فى محل بيومى يطلب الماء ليشرب دون أن يبدو عليه أنه يتذكره، ثم وضع الكوب وقال.. يا بيومى اشترى البيت الذى تسكنه فذلك خير ، ثم مضى كالطيف الهادئ تاركا بيومى مشدوها لا يتمالك نفسه فاتحا فمه يقف كالتمثال بعد أن عقدت المفاجأة لسانه ولم يسعفه ذكاؤه للتصرف فقد نسى الدرويش تماما طول خمس سنوات مضت ويظهر الآن ليقول الكلمات.
- كيف وصل الدرويش إلى مكان المحل..؟
- من أين له أن يعرف أن البيت الذى يسكنه معروض للبيع..؟
- لماذا يهتم به هكذا..؟
- لماذا الظهور المفاجئ والاختفاء ليغيب سنوات بعد ذلك..؟
ولا إجابة تريح القلب. المفاجأة التى حدثت أن صاحب البيت رضى بالمبلغ الذى عرضه عليه وأنهى الصفقة بأسرع مما كان بيومى يتوقع والذى أصبح فجأة من ذوى الأملاك بالإسكندرية.

شهران فقط مضيا بعد زيارة الدرويش ، ثم انهار البيت القديم المجاور لبيت بيومى ، وصارت مساحته أرضا فضاء بعدما أزالوا الأنقاض ، وجاء إليه من يعرض شراء بيته ليبنى على كل المساحة بناية كبيرة.
فى البداية لم يوافق بيومى ولكن الرجل رفع السعر مرات فتأكد أنه جاد بالفعل وأنه سيحصل على ثمن للبيت أضعافا مضاعفة محققا الربح الكبير ، فلم يكن يحلم أبدا أن يحوز مليونين من الجنيهات دفعة واحدة مقابل بيت متهالك دفع فيه ألفين منذ عشر سنوات ، فانتقل إلى مصاف أصحاب الملايين دون أن يرتب لذلك وأودع المبلغ فى البنك دون أن يلمسه ، وسكن شقة أخرى واستمر يعصر القصب فى شارع صغير جوار ميدان المنشية.

كما يتجمع النمل على السكر والعسل تجمع بعضهم عند بيومى يرمون إليه بمشروعاتهم للاستثمار ، والكل يبغى أن يأخذ خطفته ثم يختفى، وبيومى حريص كل الوقت ألا يتورط فيما لا يجيد ، ولم يتغير شئ فى حياته سوى رصيده بالبنك.

ابن العم مقاول يحتاج الى تمويل ، أمامه عملية كبيرة مضمونة ، والتنفيذ مدته سنة واحدة يبنى فيها عمارات للإسكان. الكلمة سيف مسلط على الرقاب ، والشرف غال وكلمة الصعيدى وعد وعهد و"شيك" مستحق غير مكتوب.
دخل بيومى شريكا مع ابن العم. بعدما مرت السنة كان بيومى قد انتقل إلى مجال المقاولات يلم بكل شئ فيه وكسب مليونا جديدا أضيف لرصيده ليدخل وحده فى مناقصات أخرى ويبنى على الساحل الشمالى والشرقى، وظل مرتديا جلبابه الأبيض وطاقيته يحيط بها الشال ويأكل مع عماله الفول والطعمية ويشرب الشاى ويحمد الله ثم يجلس يحاسب الجميع فى المقهى عمالا ومهندسين بالقرش والجنيه ، وتتوالى الأعمال ويتضخم الرصيد.

ظهر الدرويش ذو الشال الأخضر فجأة وسط الرجال فى المقهى، وما أن رآه بيومى حتى هرع إليه يستمع ما قالة إطالة الوقت ليسأله علّه يجد إجابة لعجبه وتساؤلات كثيرة تجمعت فى سنوات ، أو ليتلمس منه بركة جديدة.
الدرويش قال.. آن الأوان أن تزور البيت ، وقبل أن يرفع بيومى رأسه كان الدرويش قد مضى ولم يلتفت خلفه عندما كان بيومى ينادى عليه متوسلا أن ينتظر.

البداية كانت زيارة بيت الله ، ثم صارت عادة فى المواسم للحج والعمرة ، وكل مرة كان بيومى يعود يجد عرضا جديدا للأعمال فيدخل فيها ، وأولاده كبروا والتفوا مع أبناء عمومتهم مشكلين حوله واقيا من مطامع الغرباء ويسهلون الأمور والاتصالات بعد أن اتسعت دائرة الأعمال.

قارب بيومى الثمانين ومازال محتفظا بقواه وعقليته الحاضرة دوما ، ويزور زوجتيه بالعدل فى انتظام هادئ ، وضاحكا يقول.."النهارده الثلاثاء..مش كده..يبقى يوم الجديدة ، كده أعمل الصح" ويقهقه قائلا أعطانى الله فلماذا لاأتمتع ، ويتمتم.. الحمد لله ، وتتخذ قسماته شكلها وتسرح عيناه بعيدا فى نظرة هائمة كأنما يدرس مسألة حساب صعبة ، ثم يقول .. "وحشنى الدرويش ، نفسى أشوفه قبل العمر مايجرى.. ده كان قدم السعد علىّ.. قوللى ياأستاذ أصل الكلام أخدنى.. إنت كنت عاوزنى فى إيه..؟ "

***

رقـــص الهوانــــم

الشهرة الكبيرة إكتسبتها ببطء وهدوء. بدأت لما إلتقت بمدير أعمالها الذى تأكدت أن إتصالاته غاية فى القوة والفاعلية على كل مستويات الملاهى الليلية وشرطة الآداب والمباحث والجوازات والصحفيين الذين يهمهم أمور الترفيه والسهر والرقص الشرقى كمادة منشطة وفاتحة للشهية لقراء مجلات الصور الجميلة، وبعد تأكدها من مهاراته العالية فى ترتيب اللقاءات والسهرات الأخرى.
طارت شهرتها عبر شاشات السينما وفوق صفحات وأغلفة المجلات والصحف وأعجب الجميع بفنها. آخرون تحمسوا لها، ليس لأنها تتمتع بقوام جميل لامثيل له فقط، بل لأنها أطول راقصة وعندما ترقص فإنها تظهر مساحة كبيرة من جسدها ذى البشرة السمراء فائقة النعومة واللمعان، علاوة على أنوثتها الواضحة البارزة منها والمحددة.

ولما أدركت أن لها حضورا قويا كان لابد من الموسيقى الإفتتاحية، وإختارت لحن رقص الهوانم فالجميع يدخلون فى الإنسجام طربا على نغماته اللذيذة، وأضافت لفرقتها الأورج والجيتار الكهربى وعددا من ضاربى الدفوف والطبول، ودعمتهم بالمزمار البلدى والنقرزان وأربعة من المنشدين خلفهم يرددون مقاطع الأغنيات أثناء رقصها لإضفاءالحيوية والبهجة على المسرح مع تغيير متوافق للإضاءة مع النغمات.
كل هؤلاء يعزفون إفتتاحية الرقص ويمهدون الأسماع والأبصار لتلقى دخولها إليهم بعد إنتظار مثير طويل. فتقدم لهم إهتزازاتها المدروسة جيدا على نغمات الألحان التى يحبها الناس، وتستطيع أن تظهر مواهبها فى الرقص وقدراتها الأخرى غير المنظورة على الدقات المثيرة للطبول والدفوف والصاجات، وأجادت فنونها وتبهر الجميع كل ليلة فيصفقون طويلا طالبين أن ترقص وصلة إضافية وتتمنع حتى يأتون فى الليلة القادمة أيضا.

ترفع زهيرة ذراعيها صائحة ثم تصفق بيديها لتظهر سرورها العظيم أن مدير أعمالها أتم توقيع العقد مع الفندق، وسوف ترقص كل ليلة فى الملهى الليلى ستة شهور قادمة. بالطبع ستقدم عمولة لمدير الفندق، وهدية مناسبة لمدير العقود الذى سهل المأمورية، والأهم مكافأة مجزية لمدير أعمالها. الفرحة التى تعيشها أسكرتها، فقد كانت تتبارى مع راقصة مصر الأولى على اللقب، وكل منهما تسعى للفوز بالرقص فى فنادق الخمسة نجوم التى تحتضن نيل القاهرة فى تنافس يبدو لكلتيهما شريفا.

أنوثة زهيرة ومهارتها فتحت أمامها الأبواب والمجالات فى أفراح الطبقات الغنية والفنادق والأفلام، ثم إزدادت قدراتها عندما عرف طريقها القادمون من بلاد

الشرق والنفط الذين إكتشفوا ميزات تالية عرفوها عندما ناغشوها وهى تطوف حول الكراسى تبادلهم القفشات والنكات اللذيذة تحمل المعانى التى يقصدونها، وتجاوبهم بصوتها الأجش الذى أرهقه السهر والدخان والشراب، فكان يثيرهم ويصفقون أكثر لما يكتشفون أنها تفهم تلميحاتهم الوقحة ومزاجهم الخاص.
وأصبحت مطلوبة دائما سواء فى صالة الرقص أو فى الغرف التى يشغلها مريديها الذين حضروا من أجلها عندما يقضون الصيف على ضفاف النيل فى الفندق الذى إمتلأ بالنزلاء حتى إضطرت الإدارة أن تخلى بعض المكاتب لتزيد الأماكن. موظفو حجز الفندق استثمروا الموقف لصالحهم الخاص وأعلنوا أن الغرف مشغولة، ثم يؤجرونها بضعف الأجرة، وكل ذلك السعد يسبب رقصها الجميل ودمها الشربات تهيم بهم الليالى فى الشرفة الكبيرة المطلة على النهر الساحر.

شهور قليلة مرت بعدها راحت مسموعة الكلمة داخل الفندق العريق والكل يعمل لها ألف حساب لترضى عن الأمور. تأمر فتطاع، يغيرون لها الإضاءة وخلفية المسرح والأدوات وبرنامج السهرات، وتدخلت تحجز الأماكن لأصدقائها بالتليفون، ثم تتلقى العمولات من الفندق والهدايا من العملاء تقديرا ورغبة حتى غدت إمبراطورة غير متوجة.

إتسعت حاشيتها لتضم سكرتيرات وسائقين وطاه خاص، وعاملات يساعدنها فى أمورها وعاملات لنظافة جناحها، ومصورا يعمل لحسابها ومندوبا للمشتريات، ثم إنتقلت بكل هؤلاء إلى "فيلا" ذات أدوار ثلاثة فى أطراف المعادى لتستقر مع حاشيتها الصغيرة وتستقبل الضيوف وتقيم الحفلات الخاصة حتى لايتدخل أغراب فى مملكتها الجديدة.

كان لابد لهذه المجموعة من جيش يحميها من هجوم المعجبين. وفى الحقيقة كان لابد أن تفعل ذلك لتكمل وجاهتها أثناء تحركاتها التى أصبح يسبقها موتوسيكل وسيارة أخرى خلفها، وعندما يتوقف الركب فإن رجال الحرس سرعان ما يقفزون حولها مشكلين جدارا بشريا واقيا فصنعت بأموالها هالة تلفت أكثر وتحقق الإشاعات فتفرض شهرة أكبر محاولة التفوق دائما على قريناتها فى مجالها الصعب وترضى فى نفسها شهوة الرفعة والسمو بعد ماض كان ولابد أن تتناساه.

رئيس جيش زهيرة لابد أن يكون فى المستوى الذى يليق، فإنتقته بطلا سابقا فى لعبة رفع الأثقال وله طلعة قوية مؤثرة، وإختارت رجالا أشداء يتمتعون بأجسام كبيرة قوية، وألبستهم زيا موحدا ليكونوا متميزين حولها، ولما أعجبها ذلك وقعت فى غرام رئيس جيشها الصغير عندما وجدته يتفانى بالفعل فى خدمتها وحمايتها وفرض سطوتها على الآخرين.

تحت الأضواء الخافتة جلست زهيرة بعد رقصتها تلتقط الأنفاس، وأصابعها تتخلل شعر رئيس حرسها الخاص فى نشوة، بينما راح يداعبها ويتملق رقتها ويثنى على روعة أدائها ويشيد بأعداد المعجبين المتزايدة، وهدد أنه إذا مسها إنسان فإنه يحطمه على الفور. كانت كلمات الرجل تخرج متدفقة من فمه مخلوطة بعاطفته وشوقه طالبا الإذن بليلة خاصة. زهيرة رفضت أن تكون هذه الليلة له، فإنفعل وهو ممسك بالشوكة فوق المنضدة فلواها مع الملعقة فى ضفيرة واحدة. كانت المفاجأة لما تقدم "الجرسون" الصغير إليه ينبهه فى ذوق وهدوء أنه يتلف أدوات المائدة.

رئيس الحرس، بطل رفع الأثقال لطم الجرسون بقوة أطاحت به للخلف كثيرا يؤدبه على جرأته. ولما تمتم ببضع كلمات يلوم بها، كانت بداية ليلة سوداء لم ير مثلها من قبل ولن يرى سواها، وجعلته يندم أنه خرج من بيته فى هذه الليلة الكئيبة. رئيس الحرس بكل عنفوانه راح يكيل لكمات كثيرة وركلات فاعلة كومته على الأرض، ثم تحول إلى الأدوات يحطم ما يستطيع ويلقى بالأشياء على "الجرسون"وباقى موظفى الفندق الذين تجمهروا حوله يحمونه من الهجمة المفاجئة.

كل ذلك لم يشف غليل رئيس الحرس، ورأى أن كرامته مازالت جريحة. زهيرة لم تدرك ماحدث حولها مباشرة، وإستطاع رئيس الحرس عندما تمالك، أن يوهمها أن بإدارة الفندق أشخاصا تآمروا عليها لينهوا تعاقدها لصالح منافستها، فدفعوا "بالجرسون" فى هذه الفعلة، وأن ذلك يمسها شخصيا، وأنها أهينت بالفعل ولابد من رد شرف مناسب لها كما أنه لا يجب أن يمر هذه الحادث بخفة أبدا، وإلا ضاع جزء كبير من كرامتها وتنازلت برضاها عن مكانتها لمنافستها فتتجه بعد ذلك إلى ملاهى الدرجة الثانية بعد فضيحة غير لائقة.

إدارة الفندق قدرت التلفيات بما يزيد عن ثمانين ألف من الجنيهات. ودفعت بفرقة من العمال لإصلاح المكسور وتغيير التالف حتى تعود الصالة إلى ماكانت عليه، وآثرت ألا تبلغ الشرطة وتنهى الموقف بسرعة خوفا على سمعة الفندق الكبير.
وقبل أن تمر أربعة وعشرون ساعة على الحدث كانت الأمور قد أعيدت إلى حالها قبل المشاجرة. مدير الفندق ومساعدوه أبدوا ارتياحا كبيرا للإنجاز الرائع فى الوقت الذى توقف فيه أتوبيس أمام الفندق ونزل منه عدد كبير من نفس عينة حراس زهيرة ليقوموا بإتمام مابدأه رئيس الحرس، ثم كانت النتيجة تدمير كامل لما تم إصلاحه، ثم إمتد إلى اشياء أخرى أكملوا عليها، لإثبات تفانيهم وإخلاصهم فى العمل ليتقاضوا أجورهم كاملة، ليتطلب إعادة الإصلاح مبالغ مضاعفة ووقت أطول ، وإدارة الفندق تسعى بسرعة لإنهاء كل الموقف.

مساء نفس الليلة كانت زهيرة تنزل من سيارتها وسط حراسها بعد أن ضاعفت عددهم وتقدمت إلى حجرتها تبدل ملابسها لتظهر للجمهور فى موعدها منفذة تعاقدها بعد أن توهمت أنها إستعادت كرامتها التى أهينت وردت الفضل إلى كبير

حرسها، وإستقبلها الجمهور بعاصفة من التصفيق جعلت رأسها يدور نشوة وغرورا، فدارت وأجادت وأبدعت وتركتها إدارة الفندق شهورا أربعة ترقص فيها حتى نسى الجميع ما كان بما فيهم زهيرة، بل وتوهجت أكثر تبارى زميلاتها فى باقى صالات الرقص فى فنادق القاهرة كلها.

مدير أمن الفندق كان أمكر بكثير من زهيرة ورئيس حرسها، وكمن طوال الفترة يستعد للإيقاع بها بعد أن تهدأ الأمور، بعد أن مل صلفها وغرورها وصفاقتها وبذاءة كلماتها إليه شخصيا، فرصد عقد صفقاتها مع العملاء وتنفيذها فى مسكنها أو بيوتهم أو فى حجرات الفندق حيث يقيمون ثم تنصرف بعد أن تتم اتفاقاتها حاملة كمية من الدولارات أو الريالات أو الشيكات.

أحكم مدير الأمن الخطة. وفى الرابعة صباحا من ذلك اليوم المشئوم فى حياة زهيرة كان رئيس مباحث الآداب وضباطه، ومعهم أمر التفتيش يفتحون باب جناح الأمير بالفندق فى هدوء، ويدلفون فى سكون ليلتقط لها الصور عارية بين الأحضان تمارس دعارتها. فعلها مصور صحيفة الحوادث الذى صاحب فريق الضبط. ضابط الشرطة أصر ألا ترتدى ملابسها على الإطلاق وحرزها كلها، واكتفى بأن عطف عليها وترك لها ملاءة سرير تلتف بها.

نزلت زهيرة تضم يديها فوق صدرها تحاول ستر نفسها، وشعرها منكوش، وألوان تلطخ وجهها فى فوضى، بينما ارتسم على قسماتها التحدى واللامبالاة، تتصنع القوة. كانت الملامح حولها تحمل علامات الدهشة أو الذهول، ورأت عددا من نزلاء الفندق تجمعوا فى البهو الكبير يشهدون الحدث، وبعضهم التقط صورا ظن أنها نادرة تسجل فضيحة.
سارت زهيرة والكل حولها حتى خرجت فى مظاهرة، يحفون بها بلا دقات للدفوف أو الطبول، ولا موسيقى أو زغاريد كأنما تخطو فى زفاف حزين أو جنازة لها قبل مولد نهار لم يبث نوره بعد.

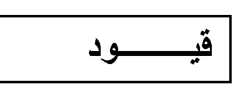
أمام سيارة الشرطة رفعت عينيها لتشاهد صورة أخيرة لما حولها، فرأت ضباط الشرطة والمباحث والفضوليين مكونين دائرة ذل لها، بينما لمحت نظرات التشفى فى عينى مدير الأمن يشير ملوحا بالوداع فى تهكم. أدركت ساعتها أنها وصلت أول النهاية فدخلت السيارة ولم تطرف لها عين أو تذرف دمعة، وأحست أنها تكاد تقضم شفتها فى غيظ عميق، ومن المؤكد لم يكن ذلك ندما.

تحدثت القاهرة زمنا عن الراقصة الطويلة السمراء ذات البشرة الملساء اللامعة، وعلاقاتها المتشعبة التى كانت، وسيطرتها التى لم يكن لها حدود ولم يباريها أحد، ثم انحسر عنها كل ذلك، ودخلت دائرة النسيان وعاشت سنوات السجن طويلة

مملة، وخرجت لتعيش عقوبة أكبر عندما وجدت أن الناس نسوها أو تناسوها متطلعين إلى راقصات أخريات يحاولن تكوين عروش صغيرة فى صالات الفنادق الفخمة ذات الخمسة نجوم، وكلهن انتهزن الفرصة فور أن دخلت السجن وتربعن فى الفنادق المطلة على النيل الساحر.

اكتشفت زهيرة أنها تقدمت فى السن وتركها المريدون والحرس والنفوذ الذى كان. وثروتها التى نهبوها ثم تآكل باقيها بسرعة لم تحسب حسابها مثل سنوات عمرها التى مضت، ووجدت أنها لا تجيد شيئا من فنون الحياة ولكنها عاشت لا تدرى ما الذى تنتظره.

***


قيـــــود

تعال بعد ساعة . هكذا قال موظف الأرشيف بمحكمة العباسية وأشاح بوجهه بعيدا كى أنصرف من أمامه . إذن لابد أن أبتعد حتى لا أغضبه وإلا أخر الشهادة التى قدمت طلبا من أجلها وأتردد عليه منذ أسبوع لأحصل عليها .

لم يكن أمامى إلا أن أسير فى الردهة الطويلة أمام المكاتب أستعرض بنظرى ما يدور محاولا فى نفس الوقت أن أجد مكانا أجلس به حتى تمر هذه الساعة العصيبة .
لمحت بسرعة كرسيا جوار سور السلم الفرعى الذى يقود إلى دهاليز المبنى الكئيب ، وأسرعت إليه قبل أن يفوز به أحدهم ، وفوجئت بالكرسى له أرجل ثلاثة فقط ، وعلىّ أن أجلس فوقه محتفظا بتوازنى دونما حركة حتى لا أسقط وأصبح أضحوكة لكل هؤلاء المارين أمامى والذين لا ينظرون تجاهى البتة .
البعض ظن أنى من أهل المكان ، فكانوا يسألون عن الأقسام والمكاتب والأساتذة ، فأرفع يدى مشيرا أنى لا أعلم ما يسألون عنه ، فيتعجبون أنى أجلس على قمة السلم غير عالم بشىء .

عريف من الشرطة يقود محبوسا فى يده قيد حديدى توقفا أمامى . يسأل العريف عن مكان دورة المياه ، وكعادتى من نصف الساعة رفعت يدى مشيرا أنى لا أعلم . نظرت إلى وجه العريف لأجده يعانى بالفعل فابتسمت لورطته متعاطفا أسأل نفسى ماذا سيفعل ومعه هذا المحبوس ؟
راح العريف يجر سجينه مهرولا فى اتجاه اليسار ، وبعد دقائق عاد كل المسافة ليمر أمامى متجها لليمين ثم رجع وفى عينيه نظرة رجاء .

كاد العريف يبكى عندما اقترب واضعا يده اليمنى فوق بطنه وعيناه متسعتان ووجهه شاحب ، فأيقنت أنه يقاسى آلام المغص فى مصارينه .
قال .. " والنبى يا حاج دقيقة واحدة وأرجع لك ، ربنا يخليك خللى بالك منه " وأومأ برأسه فى اتجاه الرجل ذى القيد ، وتعجبت أنه اختارنى من بين كل هؤلاء . يبدو أن العريف لمح فى عينىّ قبول المهمة أو هكذا توسم ، وقبل أن أتخذ قرارى لأرد عليه كان طرف القيد الحديدى قد أحاط بمعصمى وسمعت تكة معدنية شدت سمعى وبصرى فى اتجاه رسغى لأجد القيد قد أحكم القفل عليه ، وأصبحت مقيدا مثل الرجل على الطرف الآخر للقيد .
تركنا العريف واستدار بسرعة يأمل أن يقضى حاجته قبل أن يفوت الأوان ، وخطا خطوتين وبدأ يجرى مبتعدا وأدار وجهه إلينا وسمعته يقول " معلهش يا حاج .. الحرص كويس ، حالا وراجع لك " .

لم يكد يختفى العريف عن نظرى إلا وشعرت بذراعى تكاد تنخلع منى عندما هب الرجل واقفا فجذب القيد وذراعى معه فوقفت . لم أتمالك نفسى والمحبوس يجرى على السلم يشدنى خلفه ، فلم أتمكن أن أستند وتدحرجت على الدرج وانكسر العكاز منى فتوقف ليقيمنى ووكزنى فى جنبى أن أسرع قبل أن يلحق بنا أحد . قال .. سأكسر ضلوعك إن لم تطاوعنى فهذه فرصتى ولن أتركها .

وجدت نفسى أساير الرجل العجيب الذى يهرب ويجبرنى على الفرار معه داخل مبنى المحكمة . تباطأت خطوات الرجل عندما وصلنا إلى الطابق الأرضى ، وأخذ يتلفت حوله بعين فاحصة تبحث عن مخرج آمن .
قال – " أنا اسمى أحمد ، اسمع كلامى علشان نستريح سوا ، لا تتعبنى ولا أتعبك " .
قلت – " يا عم أحمد أنا راجل كبير ، ومش حمل الجرى ده ، وآخرتها مش ح تقدر تخلص منى ولا ح تعرف تهرب ، إحنا لسه فيها ، وشاور عقلك قبل الموضوع ما يكبر وتبقى حكاية هروب مسجون ، والعريف يروح هو كمان فى داهية " .
قال آمرا .. " تعال معاى " وشدنى بقوة .
سرت معه مضطرا ورأيتـــــه يتسحب مختلسا النظر إلى كل اتجاه قلقا يحاول أن يجد فرصة لا أفهمها ، يجرنى معه إلى جواره أو خلفه كثقل رذيل مجبر هو الآخر عليه ، المهم أنى وجدته يقودنى .

فجأة انحرف أحمد إلى جانب كانت تقف فيه سيدتان وتقابلت نظراتهم ووجدته يفتح بابا فى الجوار ويدخلنى معه وخلفنا السيدتان ، واكتشفت أننا فى غرفة المداولة وليس بها إلا نحن الأربعة فقط .
بعدما خفت حرقة اللقاء وهم غارقون فى الأسئلة والإجابات عن الحال والناس ، فتحت الأم ربطة كانت معها فيها أكل كثير .
قال أحمد .. بسم الله ، يدعونى أن أشاركه الطعام وأمه مع أخته تدفعاننى لأمد يدى لآكل ألذ طعام أعدته أم متلهفة وزوجة حانية لم ترفع بصرها عن وجهه ، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا سوى رصد تعبيرات الوجوه وكلامهم .
لمت الأم أطراف ربطة الطعام وخرجت من الحجرة لتتخلص من البقايا . لمحت يد أحمد تربت على يد زوجته فأغمضت وأشحت بوجهى خجلا ، ولكن لم ألبث أن عدت إلى ما كنت عليه فأرى يده تداعبها فى جرأة غير مهتم بوجودى على الإطلاق ، ولما رآنى أنظر ، دفع وجهى بيده إلى الناحية الأخرى بقوة ، قائلا " خلى عندك ذوق يا حاج " .

دخلت إلينا الأم مندفعة تقول " بسرعة .. السيد وصل خلاص " . لم أفهم ماذا تعنى ولكن أحمد جرنى معه مندفعا فى اتجاه السلم لنجد السيد هناك واقفا ينتظر ، وسيل من الأسئلة والاعتراضات يفيض منى ولا أحد يبالى بكلامى أو يفهمنى .
رأيت الرجل ضخم الجثة قوى البنيان يقف مستعدا للقاء وعيناه تمسحان كل الاتجاهات فى توتر ملحوظ واستقبلنا بلهفة وشوق .
إجباريا كنت جزءا من هذه الأحضان الحارة بين رفيقى أحمد والسيد ضخم الجثة ، وأرغمت على كل هذا . ووجدتنى أدور معهم خطوات كأننا نرقص ، ولم أدر إلا وأنا مربوط وحدى بالقيد فى سور السلم الحديدى ، وأحمد أصبح حرا فقد خلصه السيد من القيد وتركنى فيه ولم أدرك كيف حدث هذا بالسرعة الخاطفة ، وأحمد والسيد يشيران فرحا ويحثان الخطو فى اتجاه الأم والزوجة ، بينما يروح الناس حولنا ويجيئون لا يلاحظون ما يحدث . وأنا بعد ما أفقت من المفاجأة كان صياحى بأعلى صوتى " امسكو .. و .. و .. ه " ، وهم يراقبوننى ساخرين كأننى مجنون .

دقائق مرت أو ساعات لا أدرى ، فقد كان همى أن يسمعنى أحدهم وينتبه فيساعدنى، ولكن لم يعبأ بى إنسان ، كأنما أنا كم مهمل ملقى إلى جوار سور السلم يحدقون فى اتجاهى بنظرات أراها شامتة أو باردة .
كثيرون مروا ولم يجبنى واحد منهم أبدا ، منهم محامون وقضاة ومستشارون وجمهور ، وآخرون من الشرطة ضباط وجنود ، وكلهم يلقون النظرة ويشيحون بعيدا كأنى مجرم بالفعل .

قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر وانصرف معظم الناس ومنهم ذلك الموظف الكئيب الذى لم ينته من عمل الشهادة التى طلبتها منه حتى تورطت هكذا . توقعت أن يتركونى جميعا فأظل إلى الغد فى مكانى ، ولن أشرب أو آكل أو أقضى حاجتى ، بل أنى لن أستطيع الرقاد ، فقد مر أكثر من مئة إنسان رأونى جميعا وسمعونى ثم تركونى ، وطرأ على فكرى حراس المبنى وتفاعلت فإنهم سوف يفطنون لوجودى وسيحلون مشكلتى .

كمن أصابه الغيث بعد عطش طويل ، رأيت العريف الذى ورطنى يهبط فوق الدرج بسرعة ملهوفا ، ولا بد أنه يبحث عن سجينه الذى فر معى .
ناديت عليه مرات فلم ينتبه فى البداية ، ولكنه توقف بعد أن تخطانى بمسافة والتفت ودقق النظر ثم اقترب فاتحا فمه لا يصدق ما يراه .
حكيت للعريف كل شىء ، وفهم ما حدث ، ورأيت علامات الحزن والحيرة والخوف كلها ترتسم فوق وجهه الأسمر الذى زادت سمرته فجأة بعد أن احتقن بدم كثير وفوقه عرق غزير يمسحه براحة يده .
لم يتحدث العريف ، كان يسمع كلامى محاولا أن يستوعب الموقف ، أو أنه كان يفكر بعمق فى شىء آخر فلم يتفوه بكلمة واحدة .

فرغ مبنى المحكمة من الناس ، وسمعت أصواتا تتنادى فهمت منها أن الحراس ينادون ليتجمعوا مع المحبوسين متجهين إلى سيارات السجن عائدين بعد عرضهم على النيابة .
اقترب العريف ليفك قيدى من السور الحديدى للسلم ولكنه توقف عندما ناداه الملازم رئيس الحرس فهرع إليه يؤدى التحية ثم تركه لينادى زميله بالدور العلوى ، وتجمع الكل فى الصالة أمامى .
ناديت الضابط بأعلى صوتى أنى لست مسجونا ، وأن عليه أن يتحقق من ذلك ، وظللت أصرخ حتى انتبه إلىّ ولكنه قال " اسكت يا مسجون .. عامل دوشة ليه ؟ " واستدار غير آبه لما أقول ، حتى انتظم الجميع فى طابور وكل حارس يقود مسجونه واضعا طرف القيد الحديدى فى رسغه مقفولا حتى لا يهرب أحدهم وتكون كارثة كالتى أنا فيها ، فى الوقت الذى اختفى فيه العريف المسئول عن أحمد ، وأنا الوحيد المقيد إلى سور السلم .

رأيت العريف يهبط السلم ممسكا بكشف طويل سلمه للضابط الذى سأله على الفور "وأنت فين المسجون بتاعك .. اسمه إيه " ونظر إلى الكشف فى يده .
قال العريف .. اسمه أحمد أحمد مسعود ، وأشار نحوى فى ثقة ، وخطا فى هدوء حتى اقترب من القيد وفكه من السور ووضعه فى رسغه الأيسر بثبات وسرعة ، وسمعت تكة معدنية جعلتنى أصرخ ، بينما العريف يشدنى بقوة فى اتجاه الطابور .
اسكت يا مسجون ، وخبطنى أحدهم على مؤخرة رأسى ، وكلما ازددت صياحا ازدادت الضربات فوق جسدى حتى كدت أفقد رشدى ، فقد اجتمعوا كما لو كانوا متفقين على تحطيمى .
نادى الضابط " كل حارس يسحب مسجونه بالطابور فى اتجاه العربية " وأمرهم بالتحرك ، وتوقفوا أمام السيارات ينادون الأسماء للركوب .
عندما نادى الضابط على المسجون أحمد أحمد مسعود ، رد العريف أفندم .. جاهز ، وشدنى بقوة . أصرخ " يا عالم .. يا هو .. و .. و .. ه " ولا مجيب ، بل تلقيت المزيد من الدفع والضربات .
ولما أصبحت فى محاذاة الضابط رفع يده مهددا وقال " يالله يا حاج أحمد بلاش زيطة ربنا يهديك " ، ونظرت إلى العريف فرأيته يهز رأسه موافقا على قول ضابطه ، وحارس آخر يدفعنى لأسير حتى لا أعطل الطابور .

***

المواجهـــــــــة

كانت اللئيمة على الكرسى المجاور تستعد أن تقترب. لوحت بيدى لأبعدها وصحت حتى لا تلمسنى ، فتحركت مبتعدة تسير حول المائدة ثم تدور لتصبح فى مواجهتى تراقبنى.

تعودت باستمرار أن أرتب حركتى ولا أفتح الأبواب فترات طويلة لأتفادى معركتى معها. أضيق بها خاصة فى الصيف عندما أضطر لفتح النوافذ والأبواب وأصبح مكشوفا للجيران ، ساعتها تدخل ثم تبدأ الإزعاج ، فتظل تحوم حولى حتى يحين وقت النوم وأطفئ الأنوار.

فجأة أحسست بها تلمس شعرى. اقشعر بدنى رافضا متحركا بسرعة ، فابتعدت حتى توقفت إلى جانب النافذة تلتقط الأنفاس. تساءلت .. كيف ..؟ لابد أنى نسيت الباب مفتوحا لبرهة ، فتسللت المصيبة الواقفة أمامى.

أفكار القتل والعنف أزيحها جانبا ، وأبحث بدقة عن الحلول الهادئة حتى لو تطلب ذلك وقتا أو مجهودا لأنهى المواقف الحرجة والأزمات. أصدقائى يتهموننى بالهدوء والانفعال المرتب الذى يصل حد التبلد فى بعض المرات ، ورغم ذلك فإن انفعالاتى كانت واضحة على ملامحى وحركتى ، وكانت أمامى تراقبنى فى برود تحك رأسها متلذذة بمشاهدة ثورتى واضطرابى. مددت يدى أستعد لأن أدفعها بعيدا، ورأيتها تتحرك بالفعل ولكن فى الإتجاه العكسى فكدت أفقد صوابى.

كان لابد أن أغادر البيت فلدى موعد مهم لا يجب التأخر عنه فخرجت مؤجلا الموقف لحين عودتى. نزلت على السلم مشغولا أفكر فى مقابلتى القادمة. تلقائيا فتحت باب سيارتى وجلست أدير المحرك وبدأت المسير. توقفت بسرعة فقد وجدتها إلى جوارى تماما ، ولابد أنها ستشغلنى عن الطريق ، وربما تسبب ذلك فى الاحتكاك بسيارة أخرى ، أو أصدم شخصا يعبر الطريق.
فتحت الباب لأجبرها أن تترك السيارة ولم أفلح فلم تستجب لمحاولاتى ، وعلى الفور قبلت وجودها على مضض ، وما كدت أستعد للسير حتى ناوشتنى لأبدأ معها حربا أعرفها.

صممت ألا أكِل حتى أغلبها ولو أدى ذلك لضياع موعدى. أعرف أنها دائما تواجهنى ، وتفرض نفسها ، واليوم صحبتنى تثبت وجودها. توقعت للحظة أنها هدأت لولا أنى رأيتها كما فى كل مرَة تهرش رأسها متلذذة وتحكها فى إصرار، ناظرة فى تحد واضح لا أفهمه. حدقت أتأملها محاولا توقع ما ستفعله هذه المرَة ، ولم أستطع بالطبع.

جازفت بحياتى ، وقررت أن ألحق بالموعد بعد أن رأيتها تستكين فى مكانها، ربما قرأت فكرى أو فهمت نظرتى. انطلقت بالسيارة وعيناى لا تكادان تفارقاها ، ولحسن حظى لحقت بالموعد فى مكتب المحامى وجلست أرتب أوراقى.

ضايقتنى عندما بدأت تتداخل بيننا أثناء الحديث ، ولم يكن فى استطاعتى إلا أن ألوح بيدى أبعدها عن المجال عندما أتحدث ، فكانت تذهب غير بعيد لتعود متحفزة ترمقنى ثم تقترب فى صفاقة غير عابئة بى كى تلفت النظر والاهتمام أو تحاورنى محاولة قهرى.
نظرت إليها فى حسم وبقوة فراحت إلى المقعد المجاور ، وبهت عندما دققت النظر ووجدت فى عينيها تلك النظرة البلهاء المتحفزة التى أعرفها فتراجعت.

أدركت أن المحامى بدأ يتضايق من ضعف تركيزى وانصرافى عنه مهتما بتلك اللعينة ، فأعود بسرعة وأنظر فى عينيه وأهز رأسى مظهرا الاهتمام والفهم لما يقول، وقبل أن ينتهى أسأله عن الكلمات التى فاتتنى من حديثه عندما كنت أحمى نفسى من الهجمة الماضية ، وبدأت أستعجل الوقت لأنصرف من مكتبه بعد إحساسى بالإحراج من نظرته المتشككة التى تتجدد كلما سألته عما كان يقوله ، فتركته مسرعا وانطلقت.

خرجت من المكتب أجفف عرقى أكاد أصرخ وهى تدور من جانب لآخر محاولة تلمس وجهى أو يدى متلطفة. تعجبت عندما رأيت الأولاد أمام البناية توقفوا عن لعبهم ينظرون إليها وأنا أدفعها بعيدا ملوحا بيدى وهى لا ترضى أبدا.قضيت ليلة عصيبة ، رحت أفكر طوال الوقت عما يجب أن افعله ، ورأيت أنه لابد أن نتهادن أو نعقد صلحا بيننا فنصبح أصدقاء ولا تعادينى بعدما أصبحت لا تفارقنى أبدا.

***

ليلـــــة سعــدى

(١)

هذا الذى يحدث عندما تصادفنى جميلة ، دائما تتركنى فى حالة حرمان وشوق مولدة الوجد والـــهيام واللهفة لــمعاودة اللقاء .

عندما تقابلنى جميلة تنطبع ملامحها وقوامها فى عينى وتتشكل قسمات وجهى فى الفحص والترقب ، ثم لما تصافحنى ويصبح فى متناولى لمس يدها أبقيها لحظة أو دقيقة حسب نصيبى ، وفيها أخزن فى عقلى كل الصور الرائعة التى أحظى بــها وأضيف عليها لمسة المصافحة التى دامت لأنى أطلتها إلى مالا نـــهاية داخل ذاكرتى .

عندما تتحدث جميلة تتغير الملامح أنا وهى ، فتتخذ شكلا هادئا أو منفعلا باسما أو دامعـــا وأسمع أكثر محاولا إطالة اللحظة لأحصل على قدر ما أستطيع فأرتفع سابحا فى حديثها وخيالى ، أو ربـــما هوت بى إلى الواقع فأتركها متعجبا من الجمال الذى لا يدرى ماذا يفعل بالناس .

تطالعنى عينان فيهما كل السحر والمرح والذكاء والشقاوة ، بريئتان كـــأن لـــم تدخلا مدينتنا من قبل ، فتشدنى ، وأجد جميلة أقبلت وتوقفت مبتســـمة لتكـــون ليلـــة سعدى فسوف أضيف لذاكرتى .

تبهرنى جميلة فقد ملكت أسباب الجمال والخفة معا ، وتدير حديثها كمـــا أحـــب لأسمع مسجلا كل كلماتـــها ونظراتـــها وحتى حركات يـــديها وأصـــابعها ، وترانـــى منبهرا فتقبل لتزيدنى فرحا وإيلاما أن وقتى سينتهى وسأعود وحيدا كما أنا دائما .

ليالى تـــمر أستـــعيد فيها تصاوير المقابلة مفتونا أراها معى نسير فى حدائق خيالى ونسبح فى أنـــهار شفافة ونطير فى سماوات ملونة فرحـــة ، تطلـــق تغاريـــد كلماتـــها مثل طفلة شبعانة تجلجل ضحكاتـــها فى سعادة داخل أذنى وكيانى فتهزنـــى نشوة .

مددت يدى ألمسها ، ورأت نظرتى جائعة حيرى خاضعة ضارعة فقالت تـــأدب فلزمت وسقط جفناى فوق عينى لأدارى خجلى من فضح شوقى وانكسار بسمتى .

* * *

يختلـــج قلبـــى وترتبك أنفاســـى فأكاد أتلمس شيئـــا أستند عليه عنـــدما أرى هذا الرجل ، وربـــما يرقص قلبى فرحا أنى لقيته . تثبت نظرتى فوق وجهه أستوعب ملامحه فيها . أتحايل لأصل إليه وأختلق كلمات وموضوعات تتيح الحديث والوقت .

يتحول عنى متشاغلا مع آخرين أو أخريات بعدما تنتهى الدقائق سريعا معــه ، ويدور بجسده ليخفى ملامحه عن عينى ، لكن أراه يرمق طرف ملابسى مـــن بعيـــد ليحدد ما إذا كنت قد مضيت من المكان . فـــإذا ابتعـــدت أراه يدور بسرعة باحثـــا ولا يلبث أن تـــهيم نظرته بعيدا عندما يطمئن أنى مازلت فى الجوار .

وقد جهزت الكلمات لأطلقها نحوه فأبدأ اشتباكا جديدا بيننـــا ، أقتـــرب منـــه . يهمس فـــى خفوت ورقـــه مزيحـــا نظرته إلى هنـــاك حتى لا تلتقـــى عيوننـــــا . فأتـــمتم بـــهمسى الكلام حتى لا يسمع ليقترب فأخفت صوتى ويقترب أكثـــر وتلفـــح الأنفاس الوجوه فتحمر ونبتعـــد لنفعلها ثانية .

حبيبـــى وسط الآخرين أراه قويا مسيطرا وأحبه هكذا ، ومعـــى يـــذوب خجـــلا ورقة ل ايكاد يجمع الكلمات ليرد على سؤالى وربما لا يرفع عينيه ليـــرى جمـــالى . أعرف أنه ينتظرنى ويرقبنى فتتملكنى ألاعيب حواء لأزيده شوقا لأن يقترب ومـــا أن يفعل حتى أواصل ما يحدث فى كل مرة متمنية أن يبوح فنرتاح ، ولا تتملكه الشجاعة !

صمته يحيرنى دائما ، يعذبنى تردده والتزامه واحترامه لذاته كأنـــما لا يريد أن يخطئ أبدا فأسائل نفسى هل حبى خطأ . أريد أن أصـــرخ للجميع أحب هـــذا الرجل ، وهو يـــوارى نفسه . أعرف أنه لا يتعالى بل يتقوقع لداخله . أحس بـــه ينـــتفض . أنتظر أن يستجمع ذاته لحظة يقوى فيها ويعترف . أحس نبضـــاته ، ألمـــس بعينـــى أصابعه تلتف حول بعضها لتنشغل يديه وعينيه بأى شئ إلا أنا ... لماذا .. ؟

أتوق إليه وأهواه لكن أن يضعف هكذا فهذا لا أرضاه فمن يضعف فى البدايـــة سيكون هكذا على الدوام . فى قريتنا الرجال يقولون ويفعلون ، ولن أسافر إلى هناك ، ويجب أن أجعله كأحد رجال قريتى ، ليتـــه يكـــون .

***

اللـــــون الشقـــى

لماذا لا تحبنى ... ؟ فتحت عينىَ عندما تناهى إلى سمعى همسة بصوت دافئ عميق، فانتابتنى الدهشة لما لم أجد أحدا بجانبى.

أحدق فى بقعة حمراء عند طرف الوسادة ، غير مصدق أن الصوت يصدر منها. تمتد يدى بتلقائية تتحسس وجهى فربما جرحت. الهمسات توقف حركة يدى وأفتح عينىَ لآخرهما مقتربا لأسمع جيدا.

السؤال موجه إلىَ. خيل لى أنى أحلم. ابتسمت فى حيرة كبيرة متعجبا ..! بقعة حمراء تسألنى لماذا لا تحبنى..؟ رحت أنظر حولى ولنفسى ثم تستقر نظرتى على الوسادة أتفرسها بدقة مدهوشا.

من جديد راحت تسألنى .. لماذا لا تحبنى ..؟

رددت بسرعة وبساطة.. أنا لا أرى من يحادثنى فلماذا أكره أو أحب بلا سبب ..!

- أنا أمامك .. وتنظر نحوى الآن ، وتراوغنى.
- أرى الوسادة أمامى ، ولكن من يكلمنى الآن ؟
- أنا الأحمر .. هل أصبت بعمى الألوان ؟
- إن نظرى قوى ، وأرى كل الألوان والأشياء عن بعد أو قرب ، ولا أحتاج إلى نظارة مطلقا.
- إذن أنت تعرفنى. هيا أجب .. لماذا لا تحبنى؟
- أحب كل الألوان وأنت فيهم.
- أنت تكذب. أعرف أنك تفضل الأزرق والأخضر.
- نعم فإن لون السماء الصافى يستهوينى والأخضر يبعث فى روحى الأمل والحياة ، والاثنان يدفعاننى للتأمل فى قدرة الخالق حولى.
- أعلم ما تقول وملابسك فيها هذه الألوان.
- وقد يكون فى بعضها أحمر.

- لا... إن لديك رباط عنق واحد فيه نمنمات بلونى ولا تضعه كثيرا ، أليس كذلك ؟ أعرف موقعى دائما.

ذهلت من الرد السريع ، و الدقة فى الوصف ولم أعلق.

- طبيعى أن أعرف مكانى بين الخلق وأنت أحدهم.
- وما الفارق ..؟ كل منا يفضل رائحة أو لونا أو مكانا فإن البشر يختلفون.
- أنت غيرهم تماما. فإنك تكرهنى.
- أبدا هذا غير معقول.
- تجنبتنى طوال عمرك. وأرى أنك منحاز متجاوز ، ولا يهمنى أنك تبتعد عنى. ثم قال فى فخر أنا الأحمر.

اتسعت ابتسامتى واحتوت كل وجهى وصدرت عنى شهقة ، أو ربما كانت ضحكة متسائلة حاولت كتمها مذهولا أفكر كيف تنطق البقعة الحمراء.

بادرنى الصوت الأحمر قائلا .. لقد اخترتك لأنك أكثر الناس عداوة لى ، وتتجاهلنى كل يوم، وتعاكسنى كثيرا. قررت أن أعلن الحرب عليك حتى تتأدب وتعرف قدرى.

- أنا بالفعل أتجنب اللون الأحمر فهو مثير ، فألجأ لألوان أخرى وأتخير منها الأكثر هدوءاً.
- أنا هادئ بالفعل ، والآن أنت تثيرنى فإنك تشير بى للإثارة لأنك لا تحبنى.
- أنت تعرف أننا نراك لونا محفزا ترمز للدم والقسوة.
- وأنت لا ترانى إلا هكذا لأنك عدوانى ولا تفكر فى أشياء أخرى.
- رأيتك كثيرا فى ملابس النساء.
- يا زير .. أرأيت كيف توظفنى ؟ هل فكرت أن ترانى فى ربطة شعر فوق رأس طفلة كيف أبدو ؟
- أراك فى لوحات الإعلانات بمساحات كبيرة لتلفت النظر.
- أيضا هم يضعون زهرة بلونى على الصدور ، أو يختاروننى لونا لسياراتهم. هل تذكر ملك مصر عندما كانت كل سياراته حمراء ، واختارنى لنفسه وحرم ذلك على الناس، أليس ذلك تميزا لى..؟
- بل رأيته ديكتاتورية غبية أنانية استخدمت اللون الأحمر.
- دعك من هذا. لديك التفاح والرمان والفراولة والبلح والعنب كلها حمراء يحبها الناس.
- أدرك ذلك وأحبها كلها ، ولكن لا تنس اللون الأحمر فى قرون الشطة ، وهناك النار وعيون الشياطين نرسمها حمراء أيضا.
- أراك تتلاعب بالكلمات فهذه مهنتك وتكتب بأقلام سوداء حكايات بلون الهباب ، وربما من باب التغيير تمسك بقلم أزرق وتخط قصصا بلون النيلة عن ناس أسافل ، وتختار لهم أفعالهم بلون الطين والقار.

- يا أحمر .. أنا أكتب ما أشاء عن الأشياء والناس كما أراهم ، وأختار النماذج المناسبة وألقى الضوء عليها فتظهر عيوبهم أو جمالهم ، ولا يهمنى إن كانوا تافهين أو أوغادا أو صالحين طالما أن الحكى عنهم مفيد ، ولن أتقيد بألوان أو أفعال.

قال - لقد فقدت التمييز يا سيدى وخلطت بين الأفعال والألوان ، ثم اتحدت مع باقى الألوان ضدى. أكاد أجزم أنك مصاب بعمى القلب بعد عمى الألوان وفقدان الحس الجميل ، فلم تعد ترى الخدود الخجلى ولا العيون بعد البكاء.

قلت - ها نحن قد دخلنا فى البكاء. لا تغضب أيها الأحمر ، وسوف أشترى من أجلك ربطة عنق جديدة كلها بلونك ، وقلما يكتب خطوطا حمراء فربما استخدمته يوما.

***

الســـــاهـــــى

فجأة حطت الكرة فى حجرة ، وتلفت حوله ليرى صاحبها ولم يجد أحـــدا فاحتفظ بـــها بين يديه يديرها ويختبر ملمسها . ذكرته الكرة بأيام الطفولة ، عنـــدما كان يلعب بـــها فى البيت والمدرسة و الطريق أيضا . تذكر أصدقاء الطفولـــة ســـمير وحسن وسيف وسيد ، وكان أسماؤهم فيها حرف السين ماعداه . أسماه أبوه فاروق تيمنا باسم الملك ثم راح الملك وبقى اسمه ، وارتخت ملامحه مـــع تـــداعى ذكريـــات الطفولة ، والشمس الدافئة ترسل أشعتها تزيد من ارتياحه وتدفق الذكريات اللذيذة .

حضور الجرسون قطع اللحظات الممتعة . انتبه إليه وراقبه وهـــو يضـــع المشروب فوق منديل الورق مع كوب من الماء المثلج و أضاف انحناءة صغيرة ، كل ذلك سوف يدفع ثمنه بما فيه هذه أيضا . ربت على ا لكرة برفق ليســـتأنف ذكرياتـــه ولكن ترامى إلى سمعه صوت خافت يغلفه الخجل . التفت تجاه الصوت ، كانت فتـــاة بـــملابس رياضية لا تزيد عن التاسعة عشر تجمع شعرها فوق رأسها كالتاج ، رآها جميلة بريئة رقيقة . داعبها فى مكر ودعاها للمشروب مقابـــل أن يعطيهـــا الكـــرة . ضحكت الفتاة ووافقت ببساطة .دار الحديث واكتشف أنـــها تعرفه وتراه باستمرار فى النـادى .

كانت رشيقة ندية كوردة الصباح ، وحديثها ناعم لذيذ ، تحاول أن تظهـــر أكبر من عمرها ، وصارا أصدقاء ، وهكذا أصبح مشوار النـــادى يحظـــى باهتمامـــه الكبير . فى الحق كان الاهتمام بـــها فقد كانت مها مستمعة جيـــدة تبهرهـــا كلماتـــه وآراؤه وحكاياته ، واقتربت منه أكثر لينبهر بـــها . إنـــها حدث جديد فى حياته .كـــل ما فيها جميل رشيق رقيق أصبحت مقابلاتـــهما بانتظام ، يسيران حول الملاعـــب أو يلاعبها كرة المضرب ، وأحس بحيوية جديدة تدب إليه ، وأصبح يـــمارس الرياضة كل يوم وتشجعه دائما . وأدرك أن حيويتها وانطلاقها تتدفقان إليه .

انزلق إلى عمرها وبدأ يهتم بنفسه كما يحدث دائما ، فـــأزال الشـــعيرات البيضاء من شاربه أولا ، ثم أزاله كله فى المرة التالية وتلقى بعض المداعبات مـــن زملائه والأصدقاء . فرق شعره ومشطه على الجانبين كما كان يفعل ، وأعجبه الشكل الجديد وأسرع إلى صورة القديمة يقارن ويعجب .

تدريجيا لم يعد يضع ربطة العنق ثم ترك لبس البدلة ، ثم ارتدى الملابـــس الجينـــز والنظارة الغامقة وازداد شكله شبابا ، ومع ممارسته للرياضة ارتفعت روحه وازداد بـــهجة ومرحا ، ومها ترقبه فى إعجاب وانبهار لتدفعه أكثر أن يوطد علاقتـــه بـــها ويصاحبها خارج النادى وفى الشارع عندما تشترى أشياءها وحتى فى الجامعة أصبح يحضر بعض المحاضرات معها ، وهكذا شغلت حيزا كبيرا من تفكيره ووقته .

لم تكن مهما لتقاوم نفسها ، فقد أعجبت به منذ اللقاء الأول وتركت نفسها تستمتع بالموقف . كانت منطلقة كما تعودت ، ولم تكن صداقتها لفاروق غريبة ولكن

كانت تتخذ شكلا جديدا ، فقد أحست أنه أستاذها أو أبوها أو أحد أقاربــها الكبار بلا قيود تفرضها القرابة أو السن ، وشعرت أنـــها تقترب فمعه أحست بالأمان ، وكانت تجربة جديدة شعرت فيها أنـــها لا تخاطر بشئ.

دارت الأيام وعلاقة فاروق بمها تزيد وأصبح يسألـــها بدلا من تسأله ، يحاول أن يرضيها حتى تكون إلى جواره وتقتنع به وحده دون الناس ، ولم يكن فى حاجة إلى كل هذا العناء فقد كانت كما يريد منذ اللقاء الأول وكانت تسمع له دائما ، تحرص ألا تغضبه وتتركه وقتما يشاء ليقضى باقى الوقت مع أصدقاء آخرين .

أثارت هذه العلاقة أصدقاءها فناقشوها وحاصروها بالأسئلة ، ولم يخل الأمر من غمزات هنا أو هناك وتساؤلات حول الحب والزواج ، وتلميح أنه أكبر منها كثيرا ، وحاولت أن تؤكد لـــهم أنـــها علاقة صداقة صافية نقية . لم يكن هذا الحديث بداية حول الحب والزواج فقد فكرت مرات كثيرة حتى احتارت ولم تجد مخرجا سوى أن تعترف بأنها تحبه بعد أن بـــهرها واستطاع أن يسيطر على فكرها ووقتها ويوجهها كمـــا يريد .

لم يمنعها كل ذلك أن تظهر بعض مشاعرها فى كلمات أو آراء ، وربما لمسة أو نظرة تحاول أن تفصح عن أحاسيسها وكانت تقاوم هذا الشعور ، وربما تركت أحاسيسها تعبر عنها . فاروق كان يلذ له أن يراقب مها ويحلل تصرفاتـــها ويزيد من انفعالاتـــها بكلماته ولمساته حتى تكاد تذوب أو تنهار . وكان كل مرة يتراجع إلى نقطة تكفل الأمان خوفا أن يتورط أو يورطها .

فى جلسة مع الكبار حسدوه على شبابه وحيويته وقالوا لا يمكن أن نقدر سنة فهو أصغرهم وأكثرهم شبابا ، وأمتعه ذلك كثيرا واقترح أحدهم أن يتزوج مادام قويا ، ولم تكن فكرة جديدة فقد ناقشها مع نفسه فى الفترة الأخيرة واستطاع أن يجد الحل المناسب ، أن يتزوج مها ، ولن يكون هناك مشاكل ، وسيرتب الأمور حتى تسيـــر ناعمة ، سوف يتغلب على معارضة زوجته وأولاده ببساطة .

إنه ليس عجوزا حتى يطـــرد الفكرة ، ثم أنه لم يبق الكثير في عمره ويجب أن يحصل على راحته ومتعته فى الحياة ، ولماذا لا يستخدم حقه الطبيعى فى الزواج . فارق السن لا يهم إنـــها تحبه والجميع حوله يشجعونه،وسوف يقتنع أسرتـــها ، أما إمكانياته المادية فليست محل نقاش أو مقارنة . إذن فليكن الزواج .

عندما دق قلبه هذه الدقات التى عرفها منذ زمن طويل وتسارعت أنفاسه ، أحس ببرودة يديه مبللة بعرق الانفعال ودوار خفيف ، واستطاع أن يحس الشعور اللذيذ الذى يؤكد صدق حبه ورغبته الأكيدة أن يتزوج مها . تلعثم وتضاربت حروف الكلام على شفتيه . حاول أن يبدأ حديث الحب والزواج . أمسك بيدها لتوصل أصابعـــه حديثه إلى قلبها مباشرة . تشبث بـــها، أحس بيدها تضغط أصابعها فى رفق تشجعه أن يبدأ الحديث .

زاغت نظراته بين عينيها وشعرها ويده فى يدها . إن يده تنبئ عن عمره وتفضحه . سوف يخبئها بين ذراعيه أو فى جيبه . لن يدعها تنظر إلى يده . إنه مازال قويا . لا .. تشبث أكثر بيدها وانساب العرق على جبهته وأحس بروحه تنسحب منه. الدوار اللذيذ الذى بدأ لم يعد لذيذا أبدا ، الآن يجعل الأشياء تلف وتدور حوله هل يسحبون الـــهواء من كل الحديقة . حاول أن يملأ صدره بشهقات متتالية . سقطت يده من يدها لا يقدر أن يرفعها ثانية ، وأصوات بعيدة متداخلة لم يستطع أن يميزها جيدا ، أين مها ؟ ذابت صورتـــها فى عشرات الوجوه حوله .

ابتسم الطبيب قائلا إنه لا بد من تنظيم الطعام والحركة والمجهود ، وعلاج قصير وتزول الآلام ، وأقراص صغيرة توضع تحت اللسان عند الشعور ببداية النوبة ، وحرمان من الأطعمة والانفعالات ومن ممارسة الرياضة فترة طويلة ومـــمنوع الشاى والسجائـــر و ... ، ... ، وقائمة من المحرمات .

كلهم زاروه فى المستشفى ، الأقارب والزملاء والجيران والعملاء وأصدقاء النادى وأولهم ودائما مها ومعها مظاهرة من الفتيات ، وامتلأت حجرته بالزهور والأمنيات . لم تكن صورة مها تفارق خياله أبدا وغاظه أنـــها لا تحضر وحدها أبدا ، ولم يستطع أن يحدثها وهى لم تتغير رغم الأحداث ورغم الزحام حولـــها . كانت أيام المرض طويلة بطيئة يسارعها حتى يعود إلى حديث مها ويبدأه من جديد . هذه الماكرة لا تريد أن يبدأه فى المستشفى .

فى سريره عندما أفاق من النوبة التالية كان الجميع حوله يثرثرون حول نجاته ، وتزعمت مها الاهتمام والتلطف معه ، ولم يجد فى نفسه القدرة على التركيز فيما يقولـــون . أطل عليه وجه زوجته تبتسم فرحة . ماذا يقولون . الحفيد الأول لا إنـــها حفيدة .يطلبون اسما .

نظر إلى مها يسألها رفعت كتفيها إلى أعلى متسائلة هى الأخرى ى. احتار فى عيونـــهم وانزلقت دمعة لم يكن ليقدر أن يمنعها ، واستطاع أن ينطق اسم مها إنـــه اسم جميل فعلا . مها الكبيرة خرجت والأصدقاء حولها يهنئونـــها أن اسمها اختاره عمو فاروق لحفيدته ، وتركه زواره ليبقى وحيدا حيرانا ووخزته الممرضة بحقنة لينام . كانت أولى الكلمات عندما عاد الأستاذ فاروق إلى المنزل أين مها ، أريد أن أراها . وكانت أجمل الصغيرات .

* * *

فى ملعــب التنـــس

أنــهيت المباراة برمية فى ركن الملعب ولم يستطع مجدى صدها ، وبذلك أكون قد أحرزت النصر عليه مرات ثلاث متتالية فى دورى التنس ، ورغم ذلك أقبل مصافحا يهنئنى ويدعونى لشراب بارد فى حديقة النادى . انزلق الحديث فى اتجاهى وقال مجدى وصلتنا الأخبار أنك طلقت أنت الآخر ، قلت مندهشا " و مين تانى طلق ؟ ". ضحك مجدى ساخرا من جهلى قائلا لابد أن تنضم إلينا ، نحن ستة فى ملعب التنس . كل يوم نتقابل بعد المغرب فى نفس مكاننا هنا كما نجلس الآن وتدور السيرة كل ليلة حول الحريم ، وكل منا يرى ما حدث مع زوجته من زاوية جديدة فى كل مرة يحكى فيها أو يسمع قصة صديقه . لم تمض ليلتان إلا وكنت السابع فى مجموعة المطلقين ، وكنت أستمع بشغف كبير لتجارب الآخرين تشدنى تعليقات المستمعين ، ووجدت أنــهم جميعا يفكرون بنفس الطريقة التى أفكر بــها وإن كانوا فجروا داخلى نبع التفكير فيمــا كان ، ورويدا اكتسبت صداقتهم وثقتهم ثم كانت ثقتى فيهم بعد ذلك بلا حدود .

مجدى طلق زوجته بعد سبع سنوات من الزواج عندما اكتشف أنه فشل أن يخرجها من حالة النكد المستمرة والتى تتقمص فيها شخصية أمينة رزق فى هذا الدور ليل نــهار ، وعندما ينتابــها الفرح والسرور أيضا تتذكر بسرعة أنــها لا بد أن تكون نكدية، وعندما فاض به الكيل وفرغت طاقته من تحملها طلقها ولم يتزوج بعدها ، ثم استمر يمارس لعبة التنس بانتظام فى النادى .

مصطفى كانت حكايته أغرب ، زوجته كانت على النقيض تماما من زوجة مجدى، كانت لا تحمل للدنيا هما ، حياتــها كلها ضحك وفرفشة ، تضحك دائما من قلبها على كل شئ ، وتنام ملئ جفنيــها سواء كانت مفلسة أو جوعانة أو حتى عندما تتراكم الديون ، وتتساوى عندها شهادة مدرسة الولد عندما تكون بــها دوائر حمراء كثيرة أو عندما تشير إلى تفوقه . رمت على مصطفى عبء الأولاد والنقود وتدبير المعيــشة وحل المشاكل ، حتى زاد حمله وثقل عليه فطلقها هاربا ،وترك الأولاد ورمى إليها بنقود المصروفات ، ويقضى وقته كله فى عمله والنادى والبحــث عن عروس جديدة ، ويرى أولاده بصفة منتظمة إلا أنه يحن من وقت لآخر لأم أولاده فقــد رأى أنــها بدأت تتغير تحت ضغط المسئولية ، وأيضا استمر يلعب التنس فى النادى بانتظام .

نادر تزوج من صنف نادر ، كانت زوجته تحسب كل شئ بالقرش والمتر والجرام ولم يستطع أبدا أن يغيرها .دائما تجلس أمام التليفزيون وفى يدها قلم

وأوراق تحسب الدخل والمنصرف ، تحاول باستمرار أن تتوازن فوق حبل الميزانيـــة ، وكلما صرف انتباهها إلى موضوعات أخرى عادت إلى نفس موضوع كل يوم . تحلم بالأرقام والتواريخ والأثمان والكميات . رأى ترتيبها فى دولابــها والثلاجة وعداد الغاز والكهرباء . قطار يسير فوق قضيبين لا ينحرف عنهما حتى أصبح له جدولا ثابتا فى الحركة والمصروف ، حتى وقت الفراغ وزيارات الأهل والأصدقاء ، ولم يكن يشغلها سوى طوارئ الزواج المفاجئ أو مولود جديد أو حضور الأقارب من سفر بعيد ، وتحملت مسئولية ترتيــب كل ذلك، ثم امتازت بأنـــها تبتسم من وقت لآخر رغم كل انشغالـــها . حسدوها أهله وأهلها والأصدقاء، واستمرت تدبر وتبتسم . إلا أن الجفاف تسرب الى العلاقة بينها وبين نادر ثم أصبح بعد ذلك طابع الحياة بينهما ، واختلفا وافترقا ، حسبت هى كل حقوقها بالورقة والقلم وقانون الأحوال الشخصيـــة ، واستولت على شقته والأولاد وأكثر من ثلاثة أرباع مرتبه ، وتركته يلعب التنس بانتظام فى النادى.

كمال كان ماهرا فى لعبة التنس ، لجأت إليه سنيورة من النادى تطلب المشورة و المعاونة . شرح لـــها قانون اللعبة والملاعب والتحكيم ومباريات كأس العالم . وفسر لـــها نشأه اللعبة وتطور المضرب والشبكة ومساحات الملاعب ، وتغزل فى شورت التنس والبلوزة وربطة شعرها ، ثم انزلق إلى عينيها ، ثم استمر يحكى ، ويمر الوقت و أصبحا معا دائما . قلت اهتماماته بالأولاد وزوجته والمنزل وزادت اهتماماته بالفساتين والحلى والـــهدايا ، و اهتم أكثر باكتشاف أماكن جديدة للنزهة . رأوه وحذروه ثم خوفوه من زوجته وأولاده . نقل نشاطه خارج النادى . انقطع عن الملاعب وأصبح ظهوره فى البيت نادرا . زوجته لم تتركه فى حاله . بحثت وسألت واكتشفت . غلطت أنـــها واجهته بنـــزوته . هاج عندما احتقرته ورمى عليها اليمين ، حررها من انتظارها . عندما أفاق كانت السنيورة قد طارت إلى غيره . لم ترض زوجته أن يعود . رأته وقد تلوث ، وأنه لا يستحق أبوة أولاده .. فانتزعتهم منه ، واستمر فى الملعب يحاول أن يجد سنيورة جديدة فى محنة تقاسيها فى ملعب التنس .

كان فتحى قد تزوج العسكرى منذ اثنتى عشر عاما . سماها العسكـــرى . رآها هكذا منذ اليوم الأول وأعجبـــه أنـــها ملتزمة فى كل شئ . تؤدى فروض دينها وتقوم بواجبات المنـــزل ، تربى الأولاد ، وتصنع الطعام والثياب والحلويات . لا يعجبها الحال المائل أبدا ، تنتقد كل أعوج سواء كان فى الشارع أو إعلان تليفزيون أو حتى لو كان تصرف حماتـــها شخصيا ولا يقدر أحد أن يمسك لـــها الخطأ . استطاعت أن تربى أولادها على نفس صورتـــها . ثم كانت تشير إلى تصرفات أبوهم الخاطئة علانية وبصوت واضح لا يحتمل الشك . فلا يجد الفرصة أو القدرة على مواجـــهة الأم العسكرى أو الأولاد . فتحى فى البيت يحاول أن يكون فى الصورة التى رسمتها زوجته ليرضيها . لا يحب أن تنتقده فلسانـــها لاذع ، ولا يجد الكلمات للدفاع عن نفسه لذا يـــهرب من المواقف ويجهز دفاعه عن نفسه قبل أن يقف أمامها

. عاش سنواته يتمنى أن يجرب الخطأ بحرية ولم يتمكن أبدا . حاصرته بالمبادئ والمثل والعيب والحلال والحرام ، وملأت المكتبة بكتب الدين والفضيلة لعله يقرأ . طوقته بالأقارب والأصدقاء والجيران ، فقط الذين يسيرون على طريقها . فتحى وجد نفسه فى النادى تدور عيناه على الفتيات والسيدات ، وتدور عيناه مع الرجال وهم يخطئون . ضبط نفسه مرة ينتـــقد ويستنكر تصرفات بعضهم ثم تمنى أن يكون مثلهم . أحس أنه مسجون فى البيت والشارع والنادى وأثناء العطلات . زهق وقرر العصيان . ملأ جمجمته صديق التنس فاضل . أخذه الى شارع الـــهرم فى غفلة من الزمن ، وجرب الانحراف ، ثم قرر . لم يكن ذلك صعبا في البداية ولكن الصعوبة كانت الاستمرار فيه ، وتغلب عليها. فاضل سانده وساعده كثيرا ، وكانت مساندته فعالة. وعندما ذاق الخطيئة لم يجد أن عفافه قد أفاده بل حرمه من متـــع كثيـــرة حجبهـــا العسكرى عنه . واستقل فتحى بحياته مـــع فاضل وأن كان يزور أولاده أول كـــل شـــهر بعـــد أن تحـــرر ، واستمر يلعب التنس بانتظام .

كريم زوجته يتمنى مثلها كل الأزواج . مطيعة مؤدبة ومتعلمة ، والميزة الأهم أنـــها طيبة وديعة كالحمامة تقبل كل شئ . شجع كريم خلقها وتسامحها أن يمد نشاطه فى الدوائر الأوسع لتشمل المعارف والأصدقاء وبعض الجيران . كان أشبه بالديك له حكاية فى كل ركن . وربما عرفت زوجته بعض مغامراته وتعاتبه فى حياء ثم تنسى الموضوع . اطمأن كريم فإن مغامراته كلها كانت مأمونة محسوبة فلم يحدث مرة أن تورط لدرجة عدم استطاعتـــه الانسحاب ، وكان يفخر بأن يرسم الخطط وينفذها بدقة ويستمتع بكل وقته والحياة تسير . يوما عاد مبكرا وأحس أن هناك شئ غريبا و فوجئ أن وجد جاره فى غرفة نومه .
الطيبة الوديعة بكت وأقسمت . انـــهارت واستقامت وقبلت اليد والرأس وانحنت لكى تقبل القدم . أعطاها الفرصة للاعتراف . اعترفت والندم يملأها ، المغص الكلوى الذى عاودها . هاجمتها النوبة دون مقدمات . لجأت للجار . استدعته ليحقنها . المغص قتال . نجدها الشهم في ورطتها . لم تحس بالإبرة تخترق جلدهـــا . الألم كان أكبر . الرجل قام بالواجب . تخدرت من الدواء . الرجل وضع يده على رأسها .. على يديها .. على جبينها .. مخدرة هى ووديعة . لم تكن لتقدر على دفع يده . يـــده تعابثت . نـــهرته برفق . حاول أن يقترب . دموعها انحدرت . كلماتـــها تلعثمت . أنفاسها تقطعت . فتح الباب ودخلت أنت ، هكذا قالت زوجته . نظرتـــها انكسرت . أطرقت للأرض ، شعر أنـــها اقتصت من وثباته فى مخادع الآخرين . أحس أن الرجل لا ذنب له . رأى فتحى أن كرامته تحتم عليه أن يصرفه . نزل بعده بثوان وأحضر المأذون وطلق السيدة المطيعة المؤدبة المتعلمة الطيبة الوديعة كالحمامة التى تقبل كل شئ وتتسامح . حرمها من كل حقوقها نظير خيانتها ، وبدأ يمارس التنس بانتظام فى النادى .

***

شــــرف اللعبــــة

عندما نظرت ميرفت فى عينى كمال خيل إليها أنها ترى فى عينه اليمنى جوكر وفى عينه اليسرى آس مرسوم . رأت نظراته وقد أصبحت كورق اللعب يحركها ويبدلها بسرعة ليصيح فى النهاية سواء كان فائزا أو مهزوما . حالة كان هكذا منذ بداية زواجها من سنــوات ، حاولت الإصلاح ثم استكانت . هذه الليلة جافاها النوم ، ورجعت بالذكريات للأيــام الأولى وترقبها لنجمه مع الورق عندما يسطع ويلمع ويتوهج أحيانـــا ويعود محملا بالمال الوفير تأخذ منه ما تشاء وتدع الباقى يلعب به فى الغــد .

مقامر كمال منذ صغره ، تدرب طوال مراحل حياتـــه . تكاد تقسم أنه أبرع شخص جلس على مائدة القمـــار . فى أحوال قليلة كان يعود بلا مكسب وأحيانا يخسر مبالغ زهيدة . كانت ميرفت تحس أن هذا سرها العظيم تصونه عن عيون وأسماع الأهل والأقارب والجيران ، وهكذا دارت على شــمعتها سنوات كثيرة ، تعرف وحدها مقره الدائم لا تبوح به لإنسان .

هذه الليلة ثقل عليها السر . تريد أحدا تحكى معه لتفرغ خلجات فكرها ، تذكرت متى بدأت تكتم السر . بعد أيام من زواجها أتى كمال بورق اللعب وعلمها اللعبات واستدرجهــا ، ثــم خرجت النقود فوق الطاولة يجذبـــها نحوه مرة ويدفعها إليها مرات حتى أحســت لذة المكسب وحرقة الخسارة ، ولم تتعد هذه الدرجة معه وكانت نقودهــما معا . دق جرس الباب يوما ففزع كمال وأخفى الورق والنقود ودخل والدها الشيخ زكريا وعندما بدأت تحكى عن لعبتها الجديدة نادى عليها كمال من بعيد وحذرهـــا ومن يومها كان سرها .

نمت ثروة كمال واشترى سيارة وشقة جديدة وكل ما يخطر على بال . اعتنى بـــأولاده ، فى المدارس الخاصة علمهم ، وأتى بالمدرسين حتى حجراتـــهم وجعلهم يشربون العلم صباحا ومساء، يتباهى بـــهم وسط الأقارب والأهل . تضخمت الثروة ولـــم يتوقف أبدا ، فقط ينقل نشاطه من مكان لآخر . محترم فى عمله وسكنه ووسط الناس . وعندما كانت تتزايد مكاسبه وثروته يضغط على ميرفت أكثر لتكتم السر بأحكام . كـــانت هــذه هى النقطة السوداء فى حياتـــها تعرف أنـــها موجودة وتحس مرارتـــها ولا تستطيع التخلص منها . هو يقامر بالورق وتقامر بالأمل . تحب كمال وتحب مالـــه وأسلوبه فى الحياة .

كبر الأولاد واستقلوا بمواعيدهم ونزهاتـــهم وأصدقائهم ، والتحقوا بالجامعة ولم تعد قادرة على متابعة دروسهم وأحوالـــهم ، فتقلصت مسئولياتـــها وسلطاتـــها ، وعليها أن تكون موجودة وجاهزة عند عودتـــهم تلبى الطلبات وتجهز الأشياء وتستقبل

الضيوف ، وكل شئ يسير هينا فلديها كل ما تريد ، وحتى أعمال المنزل هناك من يقوم بـــها عنها . وبدأت تحس الفراغ وحاولت أن تنشغل بأشياء عديدة ثم ملت .

ازدهرت مكاسب كمال فهو يأتى بأضعاف ما يكسبه من عمله ، يربح فى القمار ومن اللاعبين قبل اللعب مقابل إدارته للمكان والأدوات ، و كان رصيده يزيد حتى أصبح من الأثرياء فعلا . صديق اللعبة ، صديق العمر ثروت سانده دائما ، يشاوره فى كل الأمـــور كانا معا كثيرا ولكن لم يكن منهم من يربح من صديقه بل كان يربح من الآخرين ويقتسمان فى كل الأحوال .

نيفين تعدت السادسة عشر وعمو ثروت يرعاها منذ طفولتها ويشترى الحلوى والملابس وأدوات المدرسة ويصاحبها فى بعض النـــزهات فكمال دائما مشغول ، وثروت يراقبها وهى تكبر ويفكر كيف يحصل عليها ، يريدها لنفسه إلى الأبد ولن يرضى كمال أن يزوجها له وهو فى سنه تقريبا .

فنط ، أقسم ، وزع . كلمات دارت على الطاولة بيـــن ثروت وكمال كما تدور كل ليلة . الليلة غير كل ليلة ، ليس هناك رفاق ، إذن فليقطعا الوقت حتى يحضروا . لن يحضروا الليلة فثروت اتصل بـــهم واعتذر . أعد عدته لكمال وحده هذه الليلة . وضع كل مهـــارته فى اللعب وسرقـــة الورق ليفوز ، وسلاحه زجاجة . فقط زجاجة وكأسان ودار اللعب ، وللمرة الأولى يخسر كمال أموالا بـــهذه الكمية لثروت ، ضاعف الأرقام حتى يكسب ويستعيد خسارته ، ولم يكن ذلك إلا مضاعفة للخسارة . كمقامر شريف سلم كمال كل ما يملك من مال وكتب الشيكات واحدا تلو الآخر ، وكأس بعد كأس حتى كانت اللحظة التى سلم فيها بآخر ما لديه لعل الحظ يبتسم . ولم يبتسم وحاز ثروت كل شئ ما عدا نيفين . قال ثروت فليكن الدور القادم على شرف اللعبة . إذا فاز كمال عادت إليه أمواله ، ثم أضاف ضاحكا أنه سوف يكون كريما مع صديق عمره إذا خسر الدور القادم وسيـــرد إليه ما خسره إذا وافـــق أن يزوجه نيفين . ورغم غرابة الرهان فـــإن كمال وافق على الفور ، وملأ ثروت كأس كمال للمرة الأخيرة قبل استئناف اللعب . كان دورا صعبا اختلطت فيه الأوراق أمام كمال وشتتت الخمر فكرة بين الخسارة والمكسب وزواج نيفيـــن ، وخسر الدور .

ثروت كان جاهزا بكل شئ ، ومكالمة قصيرة بعدها حضر مأذون وشهود ، وعقد العقد ووقع كمال واسترد شيكاته وأوراقه ، مقامر شريف يدفع دين القمار ، دين لا يعتـــرف به القاضى ولكن يعترف به العمر كله ، فلكم حكم على اللاعبين ونفذ أحكامه ، وكان ثروت ينفذ فـــورا ويجمع الشيكات والإيصـــالات ويحصلها فى اليوم التالى . اليوم هو اليوم التالى له وعليه أيضا . لملم كمال الأوراق ومزقها واسترد البنكنوت ودفع أجر المأذون وقبل صديقه زوج ابنته مهنئا ثم أوصله إلى منـــزله . هكذا شرف الـــمقامر ، يهزم مرة ويفوز أخـــرى وهو الآن غير خاسر ولن يجد أكفـــأ من ثروت يرعى ابنته .

مبروك ، قالـــها كمال لميرفت قبل الفجر عندما وصل المنزل . فرحت بالثروة الجديدة وقبلته واتسعت ابتسامتها تستعد لتلقى الرقم الكبير . فاجأها كمال بأنه زوج نيفين لصديق العمر . بـــهتت ، ذهلت ، دمعت عيناها وتحجرت النظرة . ساهمة قامت وجلست حتى الصباح على كرسى تفكر فى الورطة . نائم كمال كأن شيئا لم يحدث . ميرفت قـــاست الأبعاد وحركة الأشخاص خمنت الأرقام وحسبت الأعمار . فلسفت زواج الصغيرة والثروة الكبيرة بعد سنوات ثم زوج جديد فى حياة كلها اختيار وبعد أن يكون الأب والزوج قد فارقا الدنيا . صغيرة لاهيـــة لن تحس ألما لو تزوجت ثروت . إنـــها تحبه وترتاح إليه دائما وسوف يسعدها حتى يموت . لابد أن تقنع نفسها . لابد أن تخضع لما كان فليس أمامها سبيل آخر ، والصباح رباح .

حضرت الجدة تزور ابنتها ، صدمها سكون ميرفت ونظرتـــها الزجاجية . أحست بعاصفة. حكمة الجدة أن تصمت . ميرفت ستبوح بما لديها بعد قليل . تشاغلت بترتيب المفـــرش فوق المائدة . أصابع ميرفت تحكى القصة . توترت والتفت حول بعضها ، تنقبض وتنبسط وتعرق وتجفف بالـــمنديل . ميرفت لم تستطع الصمت . حكت كل شئ . صمتت الجدة وقامت . خرجت ولم تعلق . بعد الظهر لم تعد نيفين من المدرسة ، وحتى المساء لم تظهر والعائلة كلها تبحث .كل منهم يبحث عنها عند الآخرين . اتسعت دائرة البحث فى المستشفيات وحوادث الطرق وبلاغات الشرطة ثم بلاغ بالاختفاء ودموع وترقب وحيرة . اشترك فـــى البحث عـــن نيفين الأب وزوج الابنة ، يكاد يجن هو الآخر .

تجمعت خيوط الحدث عندما اجتمع اخوة ميرفت فى بيتها يتناقشون كيف يجدون نيفين . الجميع حيارى . أين أمى صاحت الخالة . وبدأوا البحث . إذن فقد اختفت نيفين ولابد أن الجدة معها وهدأت القلوب . إنـــها مع الجدة . فجرت ميرفت القنبلة . أعلنت أن كمال زوج ابنته لثروت ولابد أن هذا لم يعجب الجدة فاختفت بـــها . مضت شهور والجميع يبحثون . والجدة وكلت المحامى فى القضية ولابد أن تطلق الصغيرة .وأصبح هناك حزبان .
ظهرت الجدة ومعها نيفين . واجتمع الجميع يشدون من أزرها ويشجعون ويعرضون المساعدة . يوما حضرت ميرفت تحاول رؤية ابنتها . فتحت الجدة الباب ورأتـــها ثم أغلقت بـــهدوء بعد أن أرسلت ابتسامة غضبـــى عبـــر قضبان النافذة . لقد سحبت عنها رضاها .

قضية بسيطة لدين القمار الأب مدان فيها ، ويعترف أمام الكل وينكر أمام القاضى . موقف الخصوم ضعيف وموقف الأب أقوى ، والقاضى عادل يحس بضميره صدق الجدة والحفيدة . تؤجل القضية مرات ويعطلها إجازات القضاة ودهاء المحامين . البنت واصلت دراستها فى حمـــاية الجدة العجوز . تخاف عليها أن يخطفهـــا الأب أو الزوج ، وتكبر نيفين عشرات السنين فى سنة . تكاد تـــميل إلى عمو ثروت أن

يكون زوجها ، وجدتـــها تدفع إليها بما يرد عقلها وتناضل الفتاة نفسها وأبيها والناس و عمو ثروت أيضا.

كمال ألقى بالكرة فى ملعب ثروت ، فقد فعل كل ما استطاع وزوجة نيفين وقابل هجـــوم العائلة ، ووكل المحامى فى القضية وانصـــرف إلـــى أعماله وهوايته كل ليلة لا يشغله الموضوع كثيرا ألا عندما يتصل به المحامى أو يتباحث مع ثروت يطمئنه أنـــها مسألة الوقت فقط .

ثروت كان يظن أن الأمر سهلا بعد عقد الزواج ، لكنه اضطر أن يقطع شوطا طويلا يتمنى فيه الحصول على عروسه التى رباها وتابعها يوما بيوم تكبر وتنضج أمامه . بدأ مشواره بزيارة المحامى وانتهى بالانتظار لحكم القاضى فى دعوى الطاعـــة التى أقامها وأصبح يحقد على الجدة التى هدمت أحلامه ، وإن كان فى بعض الأوقات يفكر أن يخطف الفتاة ، ولكن وجد أن ذلك سوف لا يكون سهلا ، وحاول التقرب مرات ينتظر عودتـــها وكل مرة كان يجد ملاكهـــا الحارس فى انتظارها . جدتـــها العجوز كانت دائما بالمرصاد مرتين يوميا حتى يأس أن يحظى لو بكلمة .

تناقص حماس العائلة بمرور الأيام ماعدا ثروت والجدة والعروس فقد أصبحوا يدورون حول بعض وانصرف الباقى لأمور حياتـــهم . نيفين رغم صغر سنها كانت لا ترى فى عمو ثروت شيئا معيبا ، إلا أنـــها كانت منقادة بالفطرة لجدتـــها ووثقت فى حسن تصرفها حتى أصبحت تخاف أن تموت الجدة فتجد نفسها وحيدة فاقدة لكل شئ بعد أن فقدت الأب والأم فى موقف واحد ، وأصبح همها الأكبر أن تتفوق فى مدرستها وتحافظ على نفسها وجدتـــها وتنتظر حكم القاضى .

ميرفت ساندت كمال العمر كله ولكنها فجأة انحرفت وانضمت إلى العائلة . الحق معروف . لقد كان قدرها كمال المقامر . لماذا تلح أن يكون قدر ابنتها نفس قدرها وتدور دائرتـــها التى عاشت بـــها وفيها . لكن اختيار البنت هـــو الفيصل . إذن لا بد أن تنضم إلى الحزب الأقوى . لم تعلن ذلك . قلبها فقط انحاز وظلت ترعى زوجها وباقى الأبنـــاء وتسهر حتى يعود آخر الليل فيضع النقود أمامها بعد أن فقدت أهميتها سواء كانت لـــها أو له فقد شبعت منها سنـــوات كثيرة، وانضمت للباقين تنتظر معهـــم حكم القاضى .

***

معزوفة الانتماء

ليـــل ذلك اليوم الكئيب لـــم يكن أســـود ، بـــــل الليل كلـــه أصبح أحمر اللـــون عندمــــا انحل الرباط فى وجدانـــى بعد التحدى المهزوم ، ووجدت أنى ضعيف . رحت إليهـــا ، كانت جالسة فاستقامت عندمـــا رأتنـــى ، وضعتـــــنى على صدرها فرأيت عليـــه مهـــدى وفراشـــى ولحـــدى ، وأرحت رأسى فانزاحت السحابات الســـوداء عندمـــا لمتنـــى إليهـــا بذراعيهـــا تحاول إدخالى إلى ضلوعهـــا .
ألقيت إليهـــا بثقل أيامـــى وهمومـــى بينمـــا يدهـــا تربت فوق شعرى فى حنان ، فأخفيت ضعفـــى وحيائـــى أسفل ملامحـــى وثيابـــى .

رأيت وجههـــا ارتسمت عليـــه سفينة حولهـــا حور البحر والمرجان والصدفات ، ومآذن ودفوف ونايات ، فهدهدت كل مشاعرى ، وامتدت يدى فى خيالى تحيط بخصرهـــا فى ود وحنان وعرفان ، واكتشفت أن هناك دروبـــا أخرى تتسع لأحزانـــى وأحزان العالم كلـــه معى . أمس أطلقت غدارتـــــى ولم تصب ، ولم يخافوا ، فقط ارتعب الغشيم منهـــــم .

فتحت عينـــىَّ ورأيت الغديـــر يهدهد أيامهـــا ، فوق جبهتهـــا وجدت شمســـــــا ، وقمرا فوق شعرهـــــا ، وشلالا ذهبيـــــا يحيطهـــــا ، وحمرة الوجنتين تكاد تحرقهـــا .
أماطت شالهـــا ولملمت شعـــــرهـــا عن جبينهـــا فلمحت هـــــــلالا كان لأهلهـــــــا توارثتـــه الأجيال حتى هـــــلّ أمامـــــى أتطلع إليـــــه بينمـــا أناملـــــى تقبلهـــا فى احترام عظـــــــيم .

كان قد ضاع نصف نهار ذلك اليـــوم الحزين ويدى علـــــى زنادى سائرا مع رجالـــــى غربا ، وقلوبنـــا تهفـــو للشرق ، والشمس نفسهـــا تروح للمغيب .
أملنـــا الاجتياز شرقـــا ، سينـــاء والحدود إلـــى لا حدود ، تغمرنـــا نشوة البطولة والفـــــداء . أطلقونـــا للشرق ، ثم نادوا توقفوا . فلما هممنـــا فى اليوم الخامس طارت فوقنـــا قاذفات عرجـــاء ألـــقت حمولاتهـــا والنابالـــم .

كنـــا ما زلنـــا نلهث من تقدمنـــا للأمام ، ولم نكد نفيق حتى باغتنـــا أمر بالانسحاب ، فضيعوا علينـــا المجد ، وبتروا الحلـــــم .

فى الليل اختلفت الاتجاهات فتقدمنـــا ولكن إلى الغرب ، وتركنـــا كل مواقعنـــا ، وصرنـــا جميعـــا فوق الأرض أهدافـــا فحُصِدت الدبابات والأرواح سريعـــا ، ونجـــا كل من كان حظـــه هكذا ، فعـــــاد بالحسرة والذكريات المرة ومشاهد الموت المجانـــى علـــى الحدود والمحـــــاور والممرات .
كان الأمـــــر فتحركنـــــا بحثـــا عن حريتنـــا وإصبعان تشيران إلـــــى أعلى لنصر لم يتحقق ، وعيون لـــم أوفهـــا حقهـــــا ، سرت النــــــار فى جسدى ، أرى آثــــــار أقدامــــــى الداميــــــة فوق الرمــــال وحول الأشــــواك والألغـــــام .

الرمـــــال والصخــــــور حولـــــى تعجبنـــــى فى معزوفـــة لونيـــة ليس هـــــذا وقتهـــــا ، ونافورات الدم انبثقت من الأجســـاد وانتهت ، وغيرهـــا يتفجـــر أو سيحدث ذلك بعد قليل لأى منـــا وربمـــا أرى إحداهـــا وسط رءوس متفجرة ، واختلط بلون البشرة الـــــــدم والســــواد فوق رايـــــة ارتمــــــت قسرا على ذهب الرمـــال المخلصــــــة .

أراهـــا فى أبهـــى زينـــة بعد أن سبقتنـــى إلى اللـــــه رفاق الصحراء ، وسبقتنـــى غربـــا من كانت عزيمتهـــم أقل . علـــى البعد أرى أشجار الجزورينـــــا والكافور والصفصاف تغسل شعرهـــا فى الترعـــة الحلوة الممتدة شمالا وجنوبـــا كمـــا فى كل نجوعهـــا وكفورهـــا ، وأدركت أنهــــا لن تتركنـــــــى أو أتركهـــا أبـــــــدا .

بؤسا تناسينـــــــاه ، بعده صبر عجيب . وتزامـــــن ذلك مـــع طول البال والأنـــــاة لكل الشعب وأنـــــا فيهـــم ، وانبثاق الدم لم يدع خيالـــى أبدا .
عرفنـــــا قدرنـــــا وفهمنـــــا عدونـــا بعد أن وعينـــــا الدرس ، فعقدنـــــا العزم .
أشارت لنـــا مودعــــــة توصى بالصلابـــة والقدرة ، حملت الرايـــة مع كل المحبين وكلهـــم شباب ، وألقينـــــا شالا من العزة على كتفيهـــا ، كنت عمرى كلـــه أهفو إليهـــا فأسرعت وأسرعنـــا جميعــــا ، كانت تقف كعهدهـــــا فى شموخ ، وانحنت راكعــــــة تلثم رءوسنـــا ، فانحنيت أضع رأسى على جبينهـــا وأقبلهـــا على ضفتهـــا الشرقية أدعوهـــا للقيام ، فدعت بعضنـــا إلى فراشهـــم الأبدى مخضبين بدمــــــاء انبثقت كريمـــــــة ، صرخت إلـــى داخلـــى إنهـــم الأفضل ، وخطوت مع الباقين وقد ملأت الأنوف رائحـــة الرمـــال والعرق والدم والبارود والمجـــــد .
مليون مقاتل كانوا أسرى الفكرة ، الانتصار أو الموت شهادة ، كانوا مهذبين مخلصين لأنفسهم والوطن ، فأتقنوا دورهم جادين واثقين فى قادتهم وسلاحهــــــم ، بعدهـــا أصبحوا مثلا وقدوة لأجيال عديدة قادمـــة سوف تحمل لهـــــم شعور الامتنـــان والفخـــر سنوات كثيرة بعد ذلك .

مليون حنجرة هتفت متوحدة اللـــــه أكبر ، فكانت صلاة جامعـــة ظهر يوم من رمضـــــان، وانطلقت مائتان من الطائرات وعشرة أضعافهـــا من المدفعيات ونصفهـــا من الصاروخيات ، وكلهـــا تزأر قاذفـــة الجحيم البشرى إلى الشرق لتدك عشرات الألوف من القذائف فوق مراكز القيادة والمطارات والقواعد الجوية والبحرية والتجمعات والتحصينات وحقول الألغـــــام فى ثقـــة بالغـــة ، بارك اللـــــــه فيهـــا .

تنجح موجـــة الأمل الأولـــــى فى السيطرة على الشاطـــــئ الشرقـــى ، فتشل عقولهـــم وأيديهـــــم وتعمى أبصارهم ، ويتوالى نجاحنـــا وينمو ، وتتسع رؤوس الكبارى، وتمتد شرقا فنسينـــــا أننا بشر ، فقط كنـــا جنودا نسترد أرضا وشرفـــا ومجدا ، أحدنـــــا قال إنهـــا تنتظرنـــا من سنوات ست .آخر قال لن نتركهـــم أبدا وسوف نشوى مؤخراتهـــم عندمـــــا يستديرون هاربين إلى الشرق ، وسأشعلهـــا بيدى ، وفعلناهـــا وابتسمنـــــا فى تشف ثم لم نتوقف .
اتحدت إرادة شعبنـــا ولم يدعنـــا نحارب المعركـــة وحدنـــا فانضم إلينـــا وقدم كل شئ لمجهـــود القتال بكل التأييد والدعـــم والحب والفخر والإعجاب والصبر فينـــا وعلينــــــــا .

رأيت أناســـــا مصريين يضعون أوسمــــــة وأكاليل فوق جراحـــى ، ويضمدونهـــا، ويـــــــهدئون حماســـى ولوعـــــتى ، يمسحون على رأسى بالعطـــر والحنان ممتنين ، يشهـــــدون بالتضحيـــــة والفـــــداء والمجـــــد ، ورأيت فى العيون سلامـــــا لكل الأيام وكل الناس وأمـــــلا .

* * *

كنـــــوز شمائـــــل

قد بدأت من الصفر حتى وصلت إلى ما تراه . لست عصاميا كما تتصور، ولكن إن أردت الزواج من ابنتى فلا بد أن تكون مثلى وتفعل كما فعلت سنوات عمرى كلها . قال ذلك السيد المبجل الأستاذ محروس ونظر فى عينى ينتظر إجابتى. وهل ينتظر سوى الموافقة .

لقد أحببت شمائل حب العمر كله ولنا عام كامل لـــم نفترق سوى ساعات الليل . قالت لى مرة أن والدها غنى ولكن لم أكن أتصور أن يصل غناه إلى هذه الدرجة الكبيرة . صدمتنى مظاهر الثراء لأول وهلة عندما دخلت فقد كان كل شئ يفصح عن ذلك ، ولم أحلم بمثل هذا ولا رأيته أبدا . ويسألنى إن كنت أقبل أن أعمل مثلما كان . مرحبا بالحب والثروة فى آن واحد .

أحلام الحب والثروة تتحقق الآن ولا بد أن القدر يفتح لى بابا إلى النعيم . دارت عيناى وطافت فى الأنحاء أستلهم منها الرد والقرار فى ألفاظ أريد أن تكون معبرة منمقة توحى بثقافتى وعراقة منبتى وأصلى وحسبى ، ولكن أية كلمات تحوى كل ذلك والسيد المبجل جالس أمامى ينتظر كلمة الموافقة .

شمائل فتاة أحلامى فى صورة حية تفيض حيوية تثير كل أحلامى القديمة بعد أن كلت قدماى فى البحث عن عمل ، وقبلها سنوات فى كلية الهندسة أرسم وأصمم وأقدم المشروعات لأحصل على تقدير أستطيع به إقتحام الميدان . أنا لا أصدق أن الحظ ابتسم لى مرتين فى عام واحد ، مرة لما التقيت بـــها عندما استلمت العمل ، والثانية الآن وأبوها ينتظر أن أسأله كيف كون ثروته وأن أفعل مثله .

كل الزملاء حسدونى على حب شمائل وتعلقها بى .فى البداية لم أكن أتوقع أن أفوز بـــها متفوقا على الكل . قالوا فى شعرها وجماله ، وعينيها وصفاء نظرتـــها ، وعن قوامها تحدثوا كثيرا ، ثم ابتسامتها وكيف أنـــها تسحر الناس بغموضها ورقتها ، ووجدت أن الله قد ألقى محبتى فى قلبها وكأنما كانت تنتظرنى فقالت نعم ، وهاأنذا أجلس إلى أبيها أطلبها لنفسى .

أنا مهندس مهنتى أن أصمم المبانى وأقوم بحسابـــها واختبارات الأحمال والأوزان والمسافات والارتفاعات على الورق ثم فى الطبيعة ، عقلى مملوء بالنظريات والحسابات . ربما كان هناك شيئا قريبا من مهنتى يمكن أقوم به كالأعمال التجارية

والاستشارية ، أما باقى المهن فهى تخصصية كالطب والصيدلة والبحث عن البترول والمعادن وهكذا .قبل أن أسترسل طويلا فى تخمين عمل الأستاذ محروس تعجبت لأنى لم أسأل شمائل عن مهنة أبيها من قبل . لابد أنه لم تكن هناك فرصة فقد ملأت عينى وقلبى وانشغلت بـــها كلها نحلم معا بحياة قادمة . سنسبح معا فى نـــهر العسل ، وأنـــهل من الجمال والحسن ، وأحقق آمالنا ، وسيكون لى منها أطفالا كثيرين لهم ملامحها التى أحبها . إذن ابتسمت لى الدنيا بعد طول عبوس ، وسيكون لى عروس جميلة أحبهـــا زاد عليها ثـــروة أبيهـــا الطائلـــة التى لـــم أحلم بمثلها يوما .

سمعت حكايات كثيرة ولم أكن أصدق أن أكون بطلا لإحداها أبدا ولكن كل شئ يمكن أن يحدث . هذه المرة لابد أن أصبح البطل ، فقد قرر والد شمائل أن تكون مهنتى نفس مهنته ليوافق على الزواج . ثبت الرجل نظرته فوق وجهى ثم قال سره الكبير متوسما أن أوافق على العمل معه . للوهلة الأولى ظننته يمزح ولكن لم تكن هناك ثمة ابتسامة ولا نصفها ولا ملامح منها . الرجل جاد تماما بعد أن قال .

نعم .. انتبهت إلى الأستاذ محروس لقد بدأ يتكلم . لا أظنه جادا يعنى ذلك ، يقول أنه شحاذ .. متسول . يمد يده يأخذ من الناس ويجمع القرش فوق الآخر . سنوات والناس يعطون ويأخذ ويجمع وينعم بلا مؤهل ولا مجهود ولا مصروفات ولا شئ على الإطلاق . قال لكى تتزوج شمائل يجب أن تنضم إلىَّحتى لا تعيرها ثم لكى تستطيع أن تجمع تكاليف الزواج المقبل . مازحا قلت أوافق على ما تقول . الرجل جادا قال هذا اتفاق وفى الغد تستلم العمل معى ثم قام واقفا وانصرف .

ليلة صعبة لم أنم فيها تقريبا ، سهرت أقدر ما سيكون ، ولا يقبل عقلى ما قد كان من حديث . بدأت أرفض شمائل وأبيها والشرط المهين الذى وضعه أمامى . وهل تستحق شمائل أن ألقى بكل حياتى الماضية وأهلى وأصدقائى وشهادة الهندسة والعمل الجديد لأكون ظلا لأبيها الشحاذ . غير معقول أن يحدث ذلك .

أسائل نفسى كيف تركت كل بنات الناس لأقع فى مطب نادر الحدوث ، هى لا تستحق ، وأهلى وناسى لم يقدموا لى إلا كل عون وتأييد واحترام طوال عمرى فأطعنهم الآن وأترك كل ذلك لأكون متسولا فى عالم الشحاذين أجمع القروش منهم . قدرت كل شئ وقررت ألا أستمر فهذا عرض خرافى مضحك غير مسئول أقامر فيه بكل ما أملك أولـــها كرامتى أمام نفسى والناس ، ثم أن هذا العمل غير شريف وربما تعرضت فيه للمشاكل والمهانة . لن أذهب فى الغد .
فى المقابل هناك شمائل وأموال سوف ترثها من أبيها وسيارة وبيت له حديقة كبيرة ، وحبيبتى وحيدة ليس لها أخوة وأمها ماتت من منذ سنوات . كل ذلك سيكون لـــى ، إذن من الممكن أن أوافق الرجل لفترة قصيرة ، ثم بعد الزواج سأفعل ما أشاء ، ولن يعرف أحد ما يدور ، كل شئ سأجعله بعيدا عن العيون والآذان . ترددت ولم أحســم القرار حتى نمت مرهقا لا أحس شيئا حولى .

حصيلة اليوم الأول مبلغ كبير ، أما حصيلة الشهر الأول فهى تزيد عن مرتب سنة كاملة فى مهنتى الأولى . وبعد ستة شهور كان حسابى فى البنك متضخما لم يصل إليه فكرى أن يكون هذا المبلغ ملكى يوما قريبا . أبو شمائل لم يكن بالبساطة التى تصورتـــها ، فما أن بدأت العمل حتى كان يستولى على الإيراد يوما بيوم ، ومنذ اليوم الأول تنبهت لذلك وكنت أجنب مقدارا من الحصيلة أصبحت أزيده ليرتفع رصيدى حتى تأفف الرجل من كسلى فى جمع المال ، ومن كثرة ما غير لى مكان عملى هددنى قائلا أنى قد لا أصلح لشمائل زوجا فهكذا لن أقدر على الاحتفاظ بالمستوى الذى تعيش فيه ، وتململ الرجل طالبا زيادة مجهودى فإن الوقت يمر ولم أحقق نجاحا يكفى لإرضائه .

يطالبنى عم محروس بالإيراد كل يوم ، فهل سيداوم الاستيلاء عليه ؟إنه لا يجيب عن هذا السؤال أبدا. فقط يلوح لى بالزواج ويحسب الإيراد ، وقد بدأت أنا الآخر أحسب هل يـــمكن أن أعـــود لعملى من جديـــد وأتقاضى المرتب الشهرى الذى كان ، لا أظن أنه يكفى .

الآن أستطيع أن أتصور أنى لن أتزوج شمائل فهى تكلفنى ثروة كبيرة ، وهذا الجاهل الذى استطاع أن يكون هذه الثروة ليس أقدر منى بل أنا أملك من مقومات النجاح ما يفتقده بدليل ثروتى التى كونتها فى غفلة منه خلال الشهور الماضية .

أدرك أنى فى مفترق الطريق ، أمامى أن أستمر فى تسليمه إيرادى اليومى فأتزوج شمائل ، أو أنـــهى هذه اللعبة وأعود لأهلى وعملى . القرار عسير وإجازتى قاربت على الانتهاء ، وهذا الرجل لا يرضى بعودتى إلى عملى القديم ، فإذا ما أصررت فانه لن يقبل أن يزوجنى ابنته . ثم أن نقودى هذه قد حصلت عليها بعد تعب كثير وتعرضت لمضايقات عديدة وتركت حريتى وراحتى وكرامتى فى سبيلها ولا يمكن أن أتنازل عنها .

إذن لا بد أن أقدم استقالتى مرتين . مرة الى عملى القديم لأحصل على أوراقى وخلو ذمتى من مسؤولياتهم و متعلقاتـــهم ، ثم أقدمها مرة ثانية إلى السيد المبجل حتى يحلنى من مسئولية الزواج ومن توريد حصيلة كل يوم .

***

شادى الكلمـــــات

كنت فى المصيف أتساءل عن هذا الذى يحضر مبكرا ينادى فى لهفة على فرج ، ويظل يصيح يوما بعد الآخر ، وتعجبت من فرج الذى لا يرد أبدا على الرجل. ثم اكتشفت لهفـــة النداء والإنتظار يوما بعد يوم ، وبعد الإكتشاف انتقلت اللهفة إلىّ وصرت أنادى على فرج أنا الآخر .

لا أنكر تأثير أحداث استمرت أعواما طويلة بعد سنوات النضج حتى الكهولة ، فقد استوعب مجرياتـــها الروح والعقل . فخرجت الأنفاس بالآهات والأنات ، واجتمعت المرارة وبقايا الألم ، لتصبح الكلمات توجع البعض ، وتسعد الآخرين .

قررت الشكر والإقرار بالجميل المر ، فإن لها ظلا على الأفكار والكلمات والحوار ، وربما كانت الأحداث نفسها ، فاستطعت أن أتسامى رافعا رأسى بالاحترام لذاتى حتى الموت . وحتى يحدث ذلك فإنى أسبح الله حمدا ، وأشكر على ما وهبه وهو الأكثر من راحة البال والنفس ، بعد أن سقط ما يثقل إلى أسفل ، أو يشد إلى ماض ، أو ينازع فى شيخوخة قد تمر على الآخرين فى وحدة وندم على ما فرطوا فيه .

وجدت أن من أمسك بالعطر يجد أثره فى يده والآخر الذى أمسك خبيثا ترك له أثرا أيضا ، وبعد قليل زال أثر كليهما ، وهكذا الفرح والحزن لهما أثار تزول حتما .

وعدا وجود الله وحتمية الموت ، كل شئ متغير ولابد أن ينتهى ، وأن من يقنع فسوف يسعد بقناعته ويرضى بما قسم له حتى ينتهى راضيا ، والآخر سوف يقتله طموحه فإنه ينشد المزيد مما تـــهفو نفسه إليه ، فان كان المال جمعه ولانـــهاية ، فإن حلمـــه يتضخم باستمرار ولن يحوز إلا رزقه ويتحسر على مالا يلحقه ، وإن كان الجاه والقوة والمتعة فسوف ينتهى بائسا بعد أن أرهق جسده وعقله فيما هو يزول .

أصبحت راضيا مستريحا بعد أن وصل فرج الذى ناديته كثيرا ، لقد كنا جميعا ننادى يـــــــافرج .. يـــــــا فرج اللـــه .

***

تقديراً من اتحاد الكتاب لإبداع أعضائه .. تصدر هذه السلسلة التى تضم ألوان الإبداع المختلفة .. وكذلك الدراسات النقدية المتميزة .

وتؤكد هذه السلسلة أيضاً وقوف الاتحاد بالمساندة الفعلية إلى جانب أعضائه والتيسير عليهم فى نشر إنتاجهم من أجل خلق تيار أدبى يتميز بالأصالة .. ويتفرد فى ساحة النشر بخصائصه الموضوعية ..

لجنة النشر

الثمن ٣٠٠ قرشا

